الأدب في صدر الإسلام

للدكتور: حسين مناور

الأولى المحاضرة

تتكون هذه المحاضرة من ثلاثة مواضيع

- العرب و قريش بين الجاهلية والإسلام .
- أثر الإسلام فى المجتمع واللغة والأدب .
- أحداث أثرت فى شعر صدر الإسلام .

العرب وقريش بين الجاهلية والإسلام

كانت مكة متجرة العرب ومثابتهم، يشدون إليها الرحال من كل فج عميق، رجالا وركباناً، وعلى كل ضامر، قاصدين مناسكها وتجارتها، فأهل اليمن على حظة من العلم، أشادوا السدود وعمروا المدن. فأما العدنانيون فقد عرفوا الطب والبيطرة، ولاحظوا الأنواء والنجوم، وبرعوا فى الأنساب والأخبار والأشعار، وحذقوا الفراسة والقيافة، واعتقدوا بالكهانة والزجر، كما برز من تفقه بالأديان، مثل قس بن سعادة، وأميه بن أبى الصلت. والعرب أقاموا الأسواق، وتعارضوا القول، وتبادهوا الشعر،تفاخروا بالمحامد وشرف المنبت، فكان من ذلك معونة على توحيد اللسان والعادة والدين والخلق، وكان الخطيب والشاعر يتوخى اللفظ الشائع سعياً للإفهانم. ومن أظهر أسواقهم بعامة سوق عكاظ .

تسنمت قريش إمارة العرب. هبطوا الآفاق وانتجعوا الأسواق، وارتادوا اليمن والشام والحبشة وبلاد فارس وبلاد الروم .وأشار القرآن الكريم إلى هذا التجوال فى رحلة الشتاء والصيف، وفيها يتزيدون المعرفة والخبرة بشؤون الحياة، علموا بالكتب وتدبروا المعانى ونقلوا الألفاظ، فغت قريش أفصح العرب لساناً وانصعها بيانا، فليس غريباً ان ينزل القرآن بلغتهم، لتغدوا وعاءً للدين والحضارة .

عظم الشعراء مكة وقدسوها وأقسم الشعراء بها، قال زهير بن أبى سلمى:

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال نبوة من قريش وجرهم

وكان من الطبيعى ان يمتد تعظيم العرب إلى قبيلة قريش. وبهذه السيادة حققت لهجتها التفوق على سائر اللهجات قبل الإسلام، حتى أن شعراء العرب،

وكما ذكر أبوالفرج الأصفهانى _ كانوا يعرضون أشعارهم على قريش، فتقبله أو ترفضه .

وقريش التى ينتمى إليها الرسول (صلى الله عليه وسلم) عرفت بالمكارم وسمو المنزلة، ومن ذلك نذكر منزلة قصى بن كلاب رجل الفتاوى والأحكام، وهاشم بن عبد مناف الذى كان يطعم الحجيج فى مكة، وعبد المطلب بن هاشم الذى كان يفض النزاعات بين الخصوم.

ويذكر الباحثون أن الجزيرة العربية كانت مهيئة لقبول دعوة التوحيد التى صدع بها الرسول (عليه الصلاه والسلام)، وإن رفضوا الدعوة فإنما رفضوها لإنها صادرت امتيازاتهم، أكانت هذه الامتيازات على جهة المال والسلطان، أو تسويتهم بالعبيد والموالي، ويؤكد هذا الاستعداد ظهور الحنفية والنصرانية واليهودية فى الجزيرة.

أثر الإسلام فى المجتمع واللغة والأدب

أحدث الإسلام فى المجتمع العربي آثارا خطيرة، نظم العلاقات بين المخلوق وخالقه من جهة، وبين المخلوق والمخلوقه من جهة أخرى، وتفرق الناس بين مسلم أقبل على الإسلام وبين كافر ناكر الإسلام، وظل هذا الأمر سائداً إلى أن فتحت مكة، وبعدها الطائف فى معركة حنين، فدخل الناس فى دين الله أفواجا .

وبدأ مجتمع إسلامى يتشكل فى يثرب بعد هجرة الرسول(صلى الله عليه وسلم)، تحولت الروابط فيه من قبيلة عصبية إلى أمة إسلامية، وهو أول ثمرات الإسلام، كما قال عمر فروخ:زأُزيلت الفروق بين الطبقات المختلفة، فلا فرق بين أسود وأبيض إلا بالتقوى، كما جعلت للفقراء حقاً من الأغنياء، وشجع الإسلام الكسب المشروع، ونفى الغزو والسطو، نظمت الأسرة وضبط تعدد الزوجات ، كما حرم الزنا والخمرو الميسر، وحورب الكذب والغش والنفاق، حض الإسلام على مكارم الأخلاق والتوسط فى الأمور، وتحققت الوحدة السياسية فى دولة إسلامية عاصمتها يثرب، وارتقت هذه الدولة الإسلامية بالإنسان روحياً وعقلياً ولجتمعياً وإنسانياً، فى إطار من الأمن والعدل والحق والرخاء .

من الطبيعى أن تنسرب هذه التأثيرات فى اللغة والأدب، فقد عزز القرآن لهجة قريش، بوصفها أبين وأبلغ، وسرت فى خطبهم وأشعارهم، أبهر القرآن العرب بلغته وأعجزهم بأسلوبه، فغدا نبراساً للخطباء والشعراء ينهلون منه، اقتباساً وتضميناً، فتوحدت لغة الشمال والجنوب، وهجرت الأقوام المنضوية تحت راية الإسلام لغتها واتجهت إلى القرآن الكريم، وبذلك اكتسبت اللغة بعد القرآن القداسة،وتمسك بها العرب والمسلمون، فكتب لها الخلود .

أدخل القرآن ألفاظاً جديدة إلى اللغة لم تكن معروفة عند العرب، مثل؛ كفر، إيمان، نفاق، شرك، إسلام، صلاه، صوم،.....، كما ان القرآن هذب اللغة وصرفها عن غموض اللفظ وغريبه، وبفضل القرآن نصعت اللغة بالبيان والبلاغة وقامت العلوم المختلفة بخدمة القرآن مثل؛ اللغه، والنحو، والصرف ، والاشتقاق، والمعانى، والبيان، والبديع، والفقه والتفسير.....كما ان الحديث الشريف كان له ناصع الأثر على لغة العرب فالرسول(عليه الصلاة والسلام) أفصح العرب لساناً، إذ أوتى مجامع الكلم، فقد قال الجاحظ:

لم تسقط له حكمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، وأغترف منه معاصروه والمتأخرون وديّجوا كلامهم منه.

تضميناً واقتباساً، وبسبب إرتباط الحديث الشريف بالقرآن الكريم، كان له كبير الأثر فى اللغة، وهكذا هرع المسلمون يتأدبون بحديثه، ويستمدون منه عناصر الفصاحة والبيان، وجرت أحاديثة مجرى المثل؛ (الدين النصيحة)، (لايلدغ المؤمن من جحر مرتين)، (المؤمن كيس فطن).....

أحداث أثرت فى شعر صدر الإسلام

- بداية الدعوة:

فى بداية الدعوة لم تشكل الأحداث بين قريش والمسلمين وقوداً كافياً لنهوض الشعر وضرامه، إلا أن ابن سلام أورد قصيدة لأبى طالب يدافع بها عن الرسول(صلى الله عليه وسلم)، وقد أوردها ابن هشام فى السيرة.

وكان للهجرة إلى الحبشة أثر عميق فى مجتمع مكة، فقد حركت مشاعرهم إلى مسقط الرأس، وهيجت خواطرهم الصابئه إلى المنزل الأول، فالغربة تروي القوافي وتذكي العواطف، وظهرت هذه المواجع جلية فى الهجرة إلى المدينة، فقد واكبتها حركة شعرية.

وليست لغزوات أقل تأثيراً فى الحراك الشعرى، فبعد أن قويت شوكة المسلمين، توتر الصراع بينهم وبين قريش، بعدها أحست قريش بالخطر على كيانها، ونهد الشعراء من المعسكرين يسجلون الأحداث، ويتهاجون ويتناوحون على القتلى والشهداء، وتحلق حول الرسول(صلى الله عليه وسلم) طائفة من الشعراء، فى مقدمتهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبدالله بن رواحة، واصطف فى المعسكر المناوئ جمهرة من الشعراء : ابن الزبعرى، ابو سفيان بن الحارث، كعب بن زهير،.....

- الخلافة وحروب الردة :

بعد ان انتقل الرسول(صلى الله عليه وسلم) إلى جوار ربه، اختلف المسلمون على الخلافة، وانتهى الأمر إلى تأمير أبى بكر الصديق، وتحرك الشعر فى هذا المناخ، وهناك فى البوادى ارتد العرب فلاح شعر يهاجم الخلافة، وعلى العموم ظهر بعض الشعراء بعد الردة، منهم من عضد الإسلام، ومنهم من عارضه.

- الفتوحات

بعهد أبى بكر رجعت العرب إلى حظيرة الإسلام، وواصل أبو بكر رسالة رسول الله(صلى الله عليه وسلم)بالفتوحات ضد أعتى قوتين حينئذٍ (الفرس والروم)، فهذا الشاعر النابغة الجعدى يخاطب زوجتة وهو يجاهد فى ثغر من ثغور المسلمين:

باتت تذكرنى بالله قاعدة والدمع ينهل من شأنيهما سبلا
يا بنت عمى كتاب الله أخرجنى كرهاً وهل أمنعن الله ما بذلا

وكذلك الشاعر المخبل السعدى، وهو الذى وضعة بن سلام في الطبقة الخامسة، يتركة ابنة شيبان وهو شيخ مسن لا يقوى على شيء، ليلبى داعي الجهاد، ويقول المخبل فى هذه المناسبة:

أيهلكني شيبان فى كل ليلة لقلبي من خوف الفراق وحبيب
فإن يك غصنى أصبح اليوم بالياً وغصنك من ماء الشباب رطيب
فإنى حنت ظهري خطوب تتابعت فمشيي ضعيف فى الرجال دبيب

وقد شحنت الفتوحات أرواحهم بالحماسة إلى شف الجهاد،
وظهر شعراء كثر فى فترة الفتوحات مثل: أمية بن حرثان، عمرو بن شأس المخضرم....، وفى حرب القادسية كثر الشعراء الذين تفاخروا بالنصر على الفرس مثل: عمرو بن معد يكرب، قيسى بن مكشوح، طليحة بن خويلد، ضرار بن الأزور، وفى فتح الشامالتي قل شعراؤها نرى ان الشاعرعبدالله بن سبرة الجرشي يقول شعراً حماسيا يفيض بالإيمان، وذالك بعد أن شارك فى يوم فلطاس ضد الروم وفقد أصابع يده اليمنى:

يمنى يدى غدت منى مفارقة لم أستطع يوم فلطاس لها تبعا
وما ضننت عليها أن أصاحبها لقد حرصت على أن نستريح معا
وقائل غاب عن شأنى وقائلة هلا اجتنبت عدو الله أذ صرعا
وكيف أتركه يسعى بمنصله نحوي وأعجز عنه بعدما وقعا
حاسيتة الموت حتى أشتف آخره فما استكان لما لاقى ولا جزعا

- مقتل عثمان وما وقع بعده من فتنة :

كانمقتل عثمان منعطفاً خطيراً فى حياة المسلمين، وأدبهم وشعرهم، فعلت مراثيهم ونواحهم، وعلى رأسهم الشاعر حسان. وبعد مقتل عثمان رضى الله عنه انقسم المسلمون إلى ثلاثة أقسام: علي وأصحابة، طلحة والزبير وأم المؤمنين، معاوية ومن والاه من أهل الشام، وكان لهذه الطوائف شعراء وكل يوضح وجهة نظر طائفته، ولعب الشعر دوراً خطيراً فى هذه الصراعات ، ولا سيما بين معسكري علىِ ومعاوية، إذ برز الشعر التحريضي، آخذا الطابع السياسي .

المحاضرة الثانية

هذه المحاضرة مكونة من موضوعين

- موقف الإسلام من الشعر .
- ضعف الشعر فى هذا الطور .

موقف الإسلام من الشعر

ورد ذكر الشعر والشعراء فى القرآن الكريم ست مرات، من هذه الآيات الكريمة ما هدف إلى دحض مزاعم المشركين، حيث نسبوا إلى محمد(صلى الله عليه وسلم) صفة الشاعر. قال تعالى: (بل قالوا أضغاث أحلام، بل افتراه، بل هو شاعر ...)

ومنها ما نفى عن القرآن الكريم صفة الشاعرية، قال تعالى:(وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون)؛لأن الشاعرية تلقي على الرسول(صلى الله عليه وسلم)ظلالاً من الجنون، والإقبال على الملذات واللهو .

غير أن القرآن الكريم قطع رأيه بأمر الشعر بهذه الآية:(الشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات)

ويعلق ابن رشيق القيرواني على هذا النص القرآني الكريم بأنه يستهدف شعراء المشركين، ويستثني المسلمين .

وثمّة أقوال ومواقف للرسول(صلى الله عليه وسلم) تفصح عن رأيه بقول الشاعر. وطبيعى ان يتوافق مع القرآن الكريم، فقال رسول الله(صلى الله عليه وسلم):(إنما الشعر كلامٌ مؤلفٌ فما وافق الحق منه فهو حسن وما لم يوافق الحق فلا خير فيه).

كما أنه(عليه الصلاة والسلام)نهى عن رواية الشعر الذى يذكر الأعراض ويثير الأحقاد، قائلاً :(لئن يمتلئ جوفُ أحدكم قيحا حتى يريه خيرٌ من أن يمتلئ شعراً) .

أباح الرسول(صلى الله عليه وسلم)قول الشعر، واستمع إلى الشاعر النابغة الجعدي، وقال له:(لا يفضض الله فاك)، وذلك بعد قوله:

أتيتُ رسولَالله إذ جاء بالهدى ويتلوا كتاباً كالمجرّة نيّرا

كمأأنه عليه الصلاة والسلام استمع إلى الشاعر كعب بن زهير، حين جاء إليه خافضاً جناحه تائباً، وذلك بالقصيدة المشهورة : بـــانت سعاد .... ، وفيها يقول :

إنّ الرسولَ لنورٌ يُستضاء به مهندٌ من سيوف الله مسلولُ

وبعد معركة أُحُد استمع عليه الصلاة والسلام إلى كعب بن مالك، وكان معجباً ببيت سُحيم عبد بنى الحسحاس :

عميـرةَ ودّع إن تجهّزتَ غازيـا كفى الشيبُ والإسلامُ للمـرء ناهيا

ويُذكر أنه عليه الصلاة والسلام هدر دماء شعراء ناكروا الإسلام، مثل كعب بن الأشرف .

أما الخلفاء الراشدون فكان موقفهم من الشعر مستمدا من القرآن والسنّة، فقد خاطب أبو بكر الناس من شعر طفيل الغنوي :

زى اللهَ عَنّا جَعفَراً حينَ أَزلَقَت بِنا نَعلُنا في الواطِئينَ فَزَلَّتِ

واعتنى عمربالشعرفقال : إن الشعر يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب، ولكنه حارب الشعر الذي يسيء للإسلام والأخلاق، فقد سجن عمر الحطيئة حين هجا الزبرقان، وحين كان حسان يهجو قريشاً بشعر ينكأ الجراح ويثير العصبية قال : أرغاء كرغاء البعير!! وعزل النعمان بن عدي حين قال :

من مُبلغُ الحسناءَ أنّ حليلَها بميسانَ يُسقى في زجاجٍ وحنْتمِ

إذا شئتُ غنّتني دهاقينُ قريةٍ وصنّاجةٌ تجثو على كلّ مَنسَـمِ

كان عثمان يحتفي بالشعر، ويستشهد به في كلامه، أي الشعر الذي يتوافق مع الحق، وحبس ضابئ بن الحارث البرجمي حين هجا قوماً من بنى نهشل.وعن علي رضى الله عنه فقد كان شاعراً مفوّهاً، وسار على نهجهم الصحابة، من مثل عبدالله بن عباس الذي قال: إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب .

وخلاصة القول فقد نظر الإسلام إلى الشعر كأداة يتوجب توظيفها لإرساء القيم الإسلامية الجديدة .

ضعف الشعر فى هذا الطور

أول من أثار هذه المسألة الأصمعي(٢١٥)هـ فى قوله : (الشعر نكدٌ، بابه الشر، فإذا دخل فى الخير ضعف. هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية، فلما جاء الإسلام سقط شعره .

ويرى ابن خلدون أن الشعر أوّل الإسلام توقف ؛لأن العرب انشغلوا بأمر الدين والوحي، وما أدهشهم من أسلوب القرآن الكريم .

وأعرضُ هنا بعض آراء المحدثين فى مسألة ضعف الشعر:

- أحمد حسن الزيات، يرى أن حساناً كثر السقط في شعره، وقلّت جزالته وغلبت عليه السهولة .
- عمر فرّوخ، يرى أن شعر حسان فى الجاهلية أرصف منه فى الإسلام .
- عبد القادر القط، يؤكد أنه ليس من اليسير على شاعر قضى حياته فى العصر الجاهلي أن يجد لنفسه أسلوباً جديداً يُحسن التعبير عن القيم الجديدة.

على أن الكثير من النقاد رفض فكرة ضعف الشعرفى صدر الإسلام ، وذهب مع هذا الرأي المستشرق (كارلونالينو)، واستدلوا على ذلك بظهور الشعراء الفحول من المخضرمين مثل؛ كعب بن زهير، والحطيئة، اللذين وضعهما ابن سلام فى الطبقة الثانية، وكذلك النابغة الجعدي الذى وضعه ابن سلام فى الطبقة الثالثة .

وفى معرض فلحولة الشعرية ،يُذكر أبو ذؤيب الهذلي الذى أشاد به ابن سلام ، والشاعر الشمّاخ، والمخبّل السعدي الذي قدّمه ابن سلام على عمرو بن كلثوم. ومن الفحول :النمر بن تولب، وسحيم عبد بنى الحسحاس، والكُميت .

المحاضرة الثالثة

الشعراء وموضوعاتهم بين الجاهلية والإسلام

هاكم عناصر هذا الموضوع:

- مقدمة توضيحية
- شعراء واكبوا الإسلام
- شعراء ظلوا على المسار الجاهلي

- شعراء توسطوا بين المسارين الإسلامي والجاهلي

في هذه المحاضرة، سأتناول جانبا منه، وسأستكمل ما تبقّى في محاضرة لاحقة.

مقدمة توضيحية

لاشك أن الإسلام أثّر في الشعراء المخضرمين بين العصرين، الجاهلي والإسلامي ، وجاء هذا التأثير متفاوتاً، كان عميقاً في بعضهم ، وضئيلاً في البعض الآخر، ومنتفياً في بعض آخر، ويعود هذا الاختلاف إلى علاقة الشاعر بالإسلام .

شعراء واكبوا الإسلام

ونلاحظ في شعرهم تحوّلاً في موضوعاتهم ومعانيهم ، فاتّسم شعرهم بما رسمه الإسلام من خُلق ديني وقِيم جديدة، لذلك عفّت ألسنتهم عن الكثير من أغراض الشعر الجاهلي ، وتخلصوا مثلاً من الفخر القائم على العصبيّة القبلية ، وابتعدوا عن فاحش الغزل، وعن الهجاء الذي يخدش الأعراض ، ووجهوا سهامهم إلى قريش بدافع حماية الدين، والذّود عن الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وترفعوا عن وصف الخمر، واللهو، وأعرضوا عن المديح الجاهلي، متجهين الى مديح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ،وصحابته.

وظهرت في أشعارهم معاني جديدة مثل تأييد الإسلام، والحضّ على الجهاد، والحثّ على صالح الأعمال والموعظة الحسنة، ورثاء الشهداء في الغزوات والسرايا، ورثاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ،ومن مات أو قتل من خلفائه الراشدين، وجرى على ألسنتهم شعر حماسي في الغزوات والفتوحات، في سبيلهم إلى إعلاء كلمة الحق، ووصفوا المعاقل والحصون التي فتحوها، وآلات الحرب التي لم يألفوها من قبل .

هذا عبدالله بن رواحة يمدح الرسول (صلى الله علية وسلم) مثبتاً أن الإسلام حق، وأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) رسول من عند الله:

أنتَ الرسولُ فمن يحرَم نوافلَه والوجَه منه فقد أزرى به القـــدَرُ

فثبّتكَ اللهَ ما آتاك من حُســـنٍ في المرسلين ونصراً كالذي نُصروا

وربما أكدوا بشعرهم ما قرّره الإسلام من وحدة الجماعة تحت كلمة الحق، وبهذا المعنى يقول كعب بن مالك :

وفينا رسولُ الله نتّبعُ أمرَه إذا قال فينا القولَ لا نتظلّعُ

نشاورُه فيريدُ وقصدُنا إذا ما اشتهى أنّا نُطيعُ ونسمعُ

ولانعدم مديحاً لهولاء الشعراء قالوه في الصحابة، فمثلاً مدح حسان الزّبير بن العوام ، حواري رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وابن عمّته ، بمعاني جديدة تدور حول الالتزام بهدى الرسول الذي هو هدى الإسلام:

له من رسولِ الله قربى قريبةٌ ومن نُصرة الإسلام مجدٌ مؤثّلُ

فكم كُربةٍ ذبّ الزبيرُ بسيفه عن المصطفى واللهُ يُعطي ويُجزلُ

إذا كشفتْ عن ساقها الحربُ حشّها بأبيضَ سيّافٍ إلى الموت يرفلُ

وعن غرض الهجاء، فقد سخّروه لخدمة الدين. فلما بلغ الرسول (صلى الله عليه وسلم) نبأ هجاء شعراء قريش، قال :(مايمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم)، فلبى نداءه حسان بن ثابت.ويُعتبر هذا الحديث الشريف إعلاناً بتوجيه الشعر إلى الكفار. على أن الهجاء سار في اتجاهين، اتجاه جاهلي يستهدف المعايب والمثالب ،واتجاه إسلامي جديد يرمي المهجو بالكفر، ويعيبه بالانحراف عن دين الله وسنّة رسوله. ومن أمثلة الاتجاه الثاني هجاء عبدالله بن رواحه لأبي سفيان :

وعدْنا أبا سفيان بدراً فلم نجد لميعاده صدقاً وماكان وافيا

وألْقوسمُ فيتَنا فلقِيتَنا لأُبتَ ذميماً وافتقدتَ الموالیا

عصيتُم رسولَ الله أُفّ لدينكم وأمركُم السوءُ الذي كان غاويا

أما شعر الرثاء فقد حصروه بالشهداء، ورثاء النبي (صلى الله عليه وسلم) ،ومن بعده الخلفاء، وكان الرثاء يعكس وجداً جماعياً إسلامياً فرأوا في الموت سبْقاً إلى الشهادة ونيلاً لمرضاة الله وجنته. وإن كان من حزن على الفقيد فالحزن حزن المسلمين جميعاً، وينعكس هذا الشعور في مرثية كعب بن مالك بعد استشهاد حمزة رضي الله عنه:

بكت عيني وحُق لها بكاها ولا يُغني البكاءُ ولا العويلُ

على أسَدِ الإله غداةَ قالوا أحمزةُ ذاكمِ الرجلُ القتيلُ
ُصيب المسلمون به جميعاً هناك وقد أُصيب به الرسولُ
عليك سلامُ رّبك في جنانٍ مُخالطُها نعيمٌ لا يزول

وإذا ذُكرت الحماسة، فقد أكثروا الأشعار فيها، بسبب الغزوات التي خاضوا غمارها، والفتوحات التي أسهموا في انتصاراتها، وأثر الإسلام واضح في حماستهم، فهم يقاتلون لنصرة الدين، ويرون الموت فوزاً، وفي هذا المعنى يقول كعب بن مالك في يوم خيبر :

ونحن وردنا خيبراً وفروضَهُ بكلّ فتىً عاري الأشاجع مذوَدِ
جوادٌ لدى الغايات لا واهنُ القوى جريءٌ على الأعداء في كلِّ مشهدِ
يرى القتلَ مدحاً إن أصاب شهادة من الله يرجوها وفوزاً بأحمدِ

ومن أثر الاسلام في أشعارهم وموضوعاتها. ظهر شعر ديني يدعو إلى الإسلام.وفي هذا الاتجاه نسوق قصيدة وجّهها كعب بن مالك إلى ثقيف بعد أن فرغ الرسول (صلى الله عليه وسلم) من غزوة حنين، وتوجه إلى الطائف. وبدأ بها كعب برمالك داعياً أهل الطائف إلى الصلح، والدخول في الإسلام، وبذلك يوظّف الشاعر شعره ليكون لسان حال الدعوة :

فإن تُلقوا إلينا السّلمَ نقبلْ وتجعلْكم لنا عضُداً وريفا
وإن تأبوا نجاهدْكُم ونصبرْ ولا يكُ أمرُنا رعَشَا ضعيفا
نجالدُ ما بقينا أو تثيبوا إلى الإسلام إذْ عاناً مضيفا

وخلاصة القول حقق هؤلاء الشعراء بشعرهم حماية الدين الجديد من خصومه وأعدائه، ونشطوا في دعوة الناس إلى الدخول في الدعوة، بيدَ أنّ شعرهم جاء تقريريّا مباشراً، مما أبعده عن الجزالة الشعرية أحياناً .

المحاضرة الرابعة

الشعراء وموضوعاتهم بين الجاهلية والإسلام

تأتي هذه المحاضرة استكمالاً لما جاء في المحاضرة الثّالثة (الشعراء وموضوعاتهم بين الجاهليّة والإسلام). وأتناول فيها ما تبقّى من عناصر المحاضرة الثالثة:

- شعراء ساروا على النهج الجاهلي
- شعراء توسّطوا بين المسارين الإسلامي والجاهلي

شعراء ساروا على النهج الجاهلي

هذه الفئة سارت على ما كانت عليه في العصر الجاهلي، مدحوا من أجل العطاء و العصبيّة، وتغزّلوا بغير تحرّج، ووصفوا الخمر، وظل بعضهم يقول الهجاء الفاحش، حتى استحقّ بعضهم عقاب الخلفاء، مثل الحطيئة في هجائه للزبرقان بن بدر.وظلّ بناء القصيدة عندهم بناءً جاهلياوقفوا على الأطلال، ووصفوا الرّاحلة، وتطرقوا للطّرديات.....

على أننا لا ننكر أن بعضهم تأثّر بالإسلام، ولكن ليس بالصورة التي ظهرت عند أترابهم من الفئة الأولى، ذلك لأنهم لم يتّصلوا بالإسلام اتصالاً مباشراً، وإنما وُجدوا في مجتمعات بدويّة، دخلت الإسلام عَبر وفودها التي أرسلتها إلى المدينة المنورة.

في السنة التاسعة للهجرة، وكان من نتيجة ذلك أنهم لم يتأثروا بما أحدثه الإسلام من قِيم ومفاهيم جديدة، باستثناء القلّة منهم.

من هؤلاء الشعراء عبدة بن الطبيب، الذي أورد له المفضّل الضبيّ قصيدة طويلة، قالها بعد فتح القادسية:

هل حبلُ خولةَ بعد الهجر موصولُ أم أنتَ عنها بعيدَ الدّار مشغولُ
أصبحتَ كُميْتاً قَرْقَفاً أذَفاً من طيّب الرّاح واللّذات تعليلُ
صِرْفاً مزاجاً وأحياناً يُعلّلُنا شِعرٌ كمُذْهبةِ السمّان محمولُ
تُذري حواشيَه جيداءُ آنسةٌ في صوتِها لسماع الشَّرب ترتيلُ

(صرفاً : خمرة غير ممزوجة بالماءيُعلّلنا شِعر: يلهينا الغناء.مُذهبة السّمان: الوشي المذهّب. محمول: مشهور لحسنه. تذري: ترفع. الجيداء: الطويلة الجيد.)

ومنهم الشاعر أبو ذؤيب الهذلي، الذي عاش في خلافة عثمان، وقلّما نعثر على أثر للإسلام في شعره. في قصيدته التي مدح بهاعبد الله بن الزبير في فتوحات إفريقيا، لا نجد روحاً إسلاميّة، وما أورده من صفات للممدوح، فإنها استنساخ عن الصفات التي وردت في الشعر الجاهلي:

فصاحبُ صدقٍ كَسِـيْد الضِّرا ءِ ينهضُ في الغزوِ نهضاً نجيحـــأ
وشيكِ الفصولِ بعيد القـفـو ل إلاّ مُـــشـاحـــاً به أو مُشِيـحـا
كسيفِ المراديِّ لا نـــاكـــلاً جبـانـاً ولا جَيْدَريّـــاً قبيـحـا

(السِّيد: الذئب. الضِّراء:الشجر الملتفّ . النجيح:السّريع. وشيك الفصول: سريع الغزو. بعيد القفول: لا ينهزم. مشاحاً أو مشيحاً:محمولاً أو حاملاً .المراديّ: نسبة إلى قبيلة يمنيّة. ناكل:متردّد. الجيدري: القصير).

ومنهم الشاعر متمّم بن نويرة، وقد أدرك الإسلام، وعاش إلى خلافة عمر.شعره لا يدلّ على تأثّره بالإسلام، وفي مرثيته لأخيه مالك، نجد أنّه رثاه بعاطفة الشّاعر الجاهليّ، لا بعاطفة الشاعر الإسلاميّ، ونسب إلى أخيهِ مالك صفاتٍ كانت فاشية في العصر الجاهلي، مثل :السّماحة، والنجدة، وإكرام الضيف، وحسن المُنادمة.....

يقول في مرثيته:

لَعمري وما دهـري بتأبين مـالكٍ ولا جزَعٍ مـمّـا أصـاب فـأوجـعـا
وإن تلْقَ َه في الشَّرب لا تلقَ فاحشاً على الكـأس ذا قـاذورةٍ مُتزبّعـا
وإن ضرّس الغزوُ الرّجـالَ رأيتَـه أخا الحرب صدْقاً في اللقاء سَميدَعا
وما كان وقّ ّافاً إذا الخيلُ أُجمت ولا طائشـاً عند اللقـاءِ مُدقّـعـا

(الشرب: القوم يشربون الخمر. ذا قاذورة: من ينصرف عنه الناس. متزبّع: سيىء الخلق. السميدع:الشجاع، الوقّاف: الجبان، مدقّعا: الجبان.)

شعراء توسّطوا بين المسارين الإسلامي والجاهلي

قد يكون هذا العنوان لايعادل المشكلة المطروحة، لإن التوسط في هذا الميدان لا يكون تاماً، ولكن يمكننا أن نكون أكثر دقّة إذا قلنا أن هذه الفئة من الشعراء بقيت على المسار الشعري الثاني، إلاّ أنّنا لا نعدم أثراً للإسلام في شعرهم.

الشاعر لبيد بن أبي ربيعة، أدرك الإسلام، وله بعد إسلامه قصيدةٌ يرثي بها أخاه مربدا، وإذا أمعنّا النظر في هذه القصيدة، سنجدُ أن صدى الإسلام جليّ فيها:

بُلينا وما تبلى النّجومُ الطّوالعُ وتبقى الجبالُ بَعدَنا والمصانعُ
ولقد كنتُ في أكنـاف دارٍ مضـنّـة فـفـارقني جارٌ بأربدَ نـافـعُ
فلا جـزعٌ إن فرّق الدهـرُ بيننـا فكلّ امرئ يوماً له الدّهرُ فاجعُ
وما المرءُ إلاّ كالشّـهاب وضَوئـهِ يحورُ رماداً بعدَ إذْ هو ساطـعُ
وما الناسُ والأهلون إلاّ ودائـعٌ لابدّ يومـاً أن تُردَّ الودائـعُ
لعمرك ما تدري الضّوارب ُبالحصى ولا زاجرات ُالطّير ما اللهُ صانـعُ

يُضاف إلى هذه الفئة الشاعر كعب بن زهير، وهو الذي أهدر الرسول (صلى الله عليه وسلم) دمهُ، بعد أن وقف بوجه دعوته،وبعد فتح مكّة والطّف حتّه أخوه أن يذهب إلى المدينة المنورة، ويعلن إسلامه رجاء العفو، وهذا ما جرى فعلاً، ومدح الرسول(صلى الله عليه وسلم)بقصيدته المشهورة المسمّاة البردة، واستهلّها بما يتوافق مع الإرث الشعري الجاهلي، وحين وصل إلى مدح الرسول في القصيدة اتّجه اتجاهاً إسلامياً لفظاً ومعنى.

وهاك جانباً من قصيدة كعب:

بانتْ سعادُ فقلبي اليومَ متبولُ متيّمٌ إثرَها لم يُجـزَ مكبـولُ
وما سعادُ غداةَ البين إذْ رحلوا إلاّ أغنّ غضيضُ الطّرف مكحولُ
هيفاءُ مُقبلةً عجزاءُ مدبـرةً لا يشتكي قِصرٌ منها ولا طـولُ

إلى أن يقول:

أُنبئتُ أنّ رسولَ الله أوعدنـي والعفوُ عند رسول الله مـأمـولُ
إنّ الرسولَ لسيفٌ يُستضاءُ به مهندٌ من سيوف الله مسلـولُ

أما الشاعر الحطيئة، فهو زميل كعب بن زهير، وهما ينتسبان لمدرسة الشّاعر الجاهليّ زهير بن أبي سلمى. ومعلوم أن علاقة الحطيئة بالإسلام جاءت متأخرة، وحتى بعد إسلامه لم تكن سيرته محمودة، فقد ورد عن ابن قتيبة قوله عن الحطيئة: (كان رقيق الإسلام لئيم الطبع). ووصفه الأصمعي:(كان جشـــعاً ..... دنيء النفس، قليل الخير.....مَغموزَ النّسب، فاســدَ الدين... يظهر في هذه الآراء أنّ الرجلَ لم يكن بعيداً عن الإسلام، ولكنّه لم يكن شديد الالتّزام. فحين هجا الزبرقان، لم يأتِ هجاؤه مُقذِعاً ،وإنما جاء تهكّماً وسخرية.

كأنما الإسلام قد خفّف من حدّة لسانه، يقول هاجياً :

دعِ المكارمَ لا ترحلْ لبُغيتِـــها واقعدْ فأنك أنت الطاعمُ الكاسي

وقد وقف أبو عمرو بن العلاء عند أحد أبيات الحطيئة:

من يفعلِ الخير لا يعدم جوازيَه لا يذهبُ العرفُ بين الله والناسِ

واعتبره أصدق بيت قالته العرب.

ونلمحُ بوضوح أثر الإسلام في أشعاره ،ولا سيّما القصيدة التي استعطف بها الخليفة عمر، بقوله:

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذي مـرَخٍ زُغْبِ الحواصل لا ماءٌ ولا شجرُ

ألقيتَ كاسبَهم في قَعْرِ مُظلمةٍ فاغفرْ عليك سلامُ الله يا عمــرُ

المحاضرة الخامسة

موضوعها : دراسة نصوص شعريّة من صدر الإسلام

في هذا الموضوع ، سأتناول جانباً من النصوص الشعريّة العائدة إلى بعض شعراء صدر الإسلام ، أكانوا من شعراء الدّعوة الإسلامية ،أم من خصوم الدّعوة ، وسأدرس النصّ الشعري في المستويين :الموضوعي والفنّي ، كاشفاً الاتّجاهات التي استجدّت على الحركة الشعرية في هذا العصر ، أكانت في مستوى الموضوع ، أو مستوى الأسلوب الفنّي .

وسوف أتناولُ في هذه المحاضرة قِسما من الموضوع الآنِف ، على أن استكملَ ما تبقّى منه في محاضرات لاحقة .

حسّان بن ثابت:

*ترجمة للشّاعر : وُلد في المدينة المنوّرة سنة ٥٦٢هـ ، ينحدر من أسرة ذات شأن عظيم في العصر الجاهلي . وشهد له ابن سلام بأنه أشعر شعراء المدينة ، ويتفق النّقاد أنّه أشعرُ أهل المدر ، لاسيّما في المدح والفخر .

دخل الإسلام ، ودخل شعرُه معه ، وحظي بمكانة عظيمة عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وكان أشبه بالشاعر الرّسمي للرسول (صلى الله عليه وسلم)فقد وضع له منبراً خاصاً في مؤخّرة المسجد .واكب شعرُه غزوات الرّسول (صلى الله عليه وسلم)ويُعرف بقدرته الفائقة على مقارعة المشركين ، باذلاً جهداً كبيراً في الدّفاع عن المسلمين ، فهجا ابن الزّبعرى، وأبا سفيان بن الحارث ، وأبا جهل .....عاش حسّان حتى خلافة علي .

القصيدة الميميّة :

في هذه القصيدة ،صبّ حسّان حِممَه على الحارث بن هشام المخزومي،أخي أبي جهل، حاطّاً من قدره . وكان الحارث من شعراء قريش الذين تطاولوا على الإسلام . ولم يدخل الحارث الإسلام إلا بعد فتح مكّة .

دَبلَت فؤادَك في المنام خريدةٌ تسقي الضّجيجَ ببارِدٍ بسّام

كالمسكِ٢تخْلطُه بماءِ سحابةٍ أو عاتقٍ كدَم الذّبيحِ مُدامِ

بُنيت٣على قطَنٍ أجمّ كأنّه فُضُلاً إذا قعَدتْ لكُا رخامِ

وتكادُ تكسَلُ أنْ تجيءَ فراشَها في جسمِ خرعبَةٍ وحُسْنِ قَوامِ

أقصمْتُ أنساها وأتركَ ذكرَها حتى تُغيّبُ في الضّريح عظامي

ن كُذْتِ كاذبةً بالذي حدّثْتِني فنجوتِ منجى الحارث بن هشام

ركَ الأحبّةَ قاتلَنْ دُونَهمْ ونجا برأسِ طِمرّة و لجامِ

وبنو أبيه ورهطُهُ في مَعْرَكٍ نَصَرَ الإلهُ به ذوي الإسلامِ

دَدَتْهُمُ والله يُنْفِذُ أمْرَه حَرْبٌ يُشَبُّ سعيرُها بِضرامِ

مابين٩مأسورٍ يَشدّ وثاقَه صقْرٌ إذا لاقى الأسنّةَ حام

وامُجدّلٍ ◌ٍ لا يستجيبُ لدعوةٍ حتىّ تزولَ شوامخُ الأعلام
بالعارِ والذّلِّ المبيّنِ إذْ رأى بيضَ الوجوه تسوقُ كلَّ هُمَامِ

- ملاحظة :لضبط الأبيات الشعريّة ، يمكن العودة إلى ديوان حسّان ، أو المرجع الرئيس، الوارد في المحاضرة التمهيديّة .
- معاني الألفاظ : تبلت : أسقمت . خريدة : الفتاة البكر. العاتق:الخمر المعتّق. مُدام: خمر.القطَن:ما انحدر من ظهر الإنسان إلى ردفيه. الأجمّ : الممتلئ باللحم.الفُضُل من النساء:المرأة التي ترتدي ثوباً واحداً . المداك: الحجر الذي يُسحق فيه الطيْب. الخرعبة:الغصن النّاعم. أقسمت أنساها:لأنساها.الطّمرّة:الفرس السريعة . المجدّل: الصّريع . الأعلام : الجبال. الهُمام: السيّد.
- المعنى: من البيت (١-٥)هذه الأبيات جزء من المقدّمة الغزليّة التّقليديّة الموروثة من العصر الجاهلي .ويتحدّث في هذه المقدّمة عن عشيقته التي

ألهبت قلبَه، ونفت النومَ عن عيونه. في ريقها حلاوة وريقُها كالمسك طيباً ، كما أنه ممزوج بالماء ، ومذاقُه كمذاق الخمر المعتّق ، مكتنزةُ الجسم ، مشدودة اللحم كالرّخام الذي يُسحق عليه الطّيب متنعّمة مُدلّلة ،تثنّى جسمها ليونةً كالغصن الطّري لا تفارقُ مخيّلتَه أبدا ، ولن ينساها حتى لو توارى في التراب .

نذكّر هنا أن هذا الوصف الحيّ للمرأة ، وذِكْر الخمرة ، هو تقليد مألوف لا يسيء إلى إسلام حسّان .

البيت السّادس يشكّل جسراً ، ينتقل عَبره من غرض الغزل إلى غرض الهجاء ، ويقول فيه :إن كذبتِ لتهرُبي من الحقيقة ، فإنما فعلتِ كما فعل الحارثُ بن هشام حين كذب في المعركة ، وفرّ منها هارباً من المواجهة .

من(٧-١٢) :يخصّصها لهجاء الحارث .فالحارث لم يصمد في المواجهة ، وهرب جبناً على صهوة فرسه السريعة ، تاركاً قومَه يواجهون الموت ، فمنهم من أُسر ، ومنهم من قُ◌ُتل .تمرّغوا بالعار والذلّ أمام أبطال المسلمين الشجعان . لاشك أن حسّاناً يرمي إلى إلْصاق الذلّ والجبن في قريش في مواجهة فرسان المسلمين .

في غرضيه السّابقَ◌َين الغزلي والهجائيّ ، لم يستطع حسّان أن يتخلّص من الآثار الجاهليّة ، غير أنّه تمكّن من توظيف التّراث الموضوعي لخدمة الإسلام، والنّيل من أعدائه ، وأعداء الإسلام .

المحاضرة السادسة

تابع دراسة نصوص شعريّة من صدر الإسلام

أُتابع فيها ما جاء في المحاضرة السّابقة :دراسة النصوص الشعريّة ، والتي بدأناها بقصيدة حسّان بن ثابت : تبلّت فؤادك في المنام ...

والعناصر المتبقيّة من دراستها :

. هيئة القصيدة

.بنية التّضاد في القصيدة (الصّراع)

. مُعجم القصيدة (الألفاظ)

. المستوى البلاغي في القصيدة (المجاز)

هيئة القصيدة

ونقصدهيئة القصيدة ، الطريقة التي بنى حسّان بها قصيدته ، كيف رتّب أغراضه ؟ وكيف انتقل من غرض ٍ إلى آخر ؟ ظلّ حسّان متأثّراً ببناء الجاهليّ ، نراه يبدأ بالنسيب اقتداءً بالعهد الجاهليّ ، والنسيب هو مقدّمة نسويّة ، يتحدثون فيها عن المرأة ، وصفاً لمحاسنها ، أو تظلّماً من نكرانها ، ومراوغتها ، أو وصفاً لما يعانيه الشاعر من تباريح الهوى، أو شدّة الرّهق ...انظر الأبيات من (١-٥) ، فهي تمثل هذه المقدمة النسويّة .والحقيقة أن هذه الأبيات جزء من المقدّمة ، وليست كلها ، أوردتُها على سبيل التمثيل .

أما البيتالسّادس ، فهو يشكّل برزخاً بين الغزل والهجاء ، ويسمونه التخلّص ، وهي مسألة فاشية في الشعر الجاهلي ، ونلاحظ أن حسّاناً ظلّ وفيّا لهذه الطريقة ، ولكنه لم يتوفق في هذا التخلّص .

أما القسم الآخر من النصّ فهو مُنصبّ على هجاء الحارث، وهو ما نسمّيه بالغرضالأساسيّ .

مُعجم الألفاظ في النّص ـ

* وأبدأ بحقل الغزل والنّساء : (تبل ، فؤاد ، خريدة ، تسقي ، بارد ، بسّام ، مسك ، ماء ، سحابة ، عاتق ، قطَن ، أجمّ ، فُضُل ، مداك ، رخام ، تكسلُ ، فراش ، جسم ، خرعبة ، حسن ، قوام ، أنساها ، ذكرها) ، نلاحظ أنّ غالبية الألفاظ الواردة لها علاقة بالغزل والمرأة و العشق، من قريب أو من بعيد؛ إلى حدّ يدفعنا أن نقول : الشاعر يختار اللفظ المناسب للمعنى المناسب ، بمعنى أنّ ألفاظه تُميط اللّثام عن معانيه .

* حقل الحرب والهجاء (نجوت ، يقاتل ، طمرّة ، معرك ، نصر ،طحن ، حرب ، يشبّ ، سعير ،ضراب ، مأسور ، يشتّد ، وثاق ، صقر ، الأسنّة ، حام ، مجدّل ، شوامخ ، عار ،ذلّ، هُمام) نلاحظ بهذا الحقل أن الشاعر حطّ من أقدار قريش في ساحات المواجهة ، وهي منقصة تجرح مشاعر الرّجال ، وتلصق بهم العار .

* الحقل الإسلامي : (أقسم ، نجا ، نصر ، الإله ، الإسلام ، الله ، سعير ، دعوة ، بيض الوجوه). نجد أن هذا الحقل شحيح ، وهذا يعني أن الشاعر –فعلاً– لم يتخلّص من المعجم القديم ، غير أنّ هذه الألفاظ بدت تتزايد في أشعارهم ، وتحلّ محلّ الألفاظ الشّائعة في أشعارهم ما قبل الإسلام .

بنية التضاد في النصّ (الصّراع)

فيما يلي أحاول أن أعرض التّيارات المتصادمة في النصّ ، بما يشبه الجدول الثنائي :

عشيقته في رغدٍ ونعيم ـــــــــــــ الشاعر منهوك مكدود

هي تنساه ـــــــــــــــــــــ هو لا ينسى

هي كاذبة ـــــــــــــــــــــ هو صادق

الحارث يترك قومه ـــــــــــــ قومه في ميدان المعركة

قوم الحارث أذلهم الله ـــــــــــــ قوم الشاعر (المسلمون) نصرهم الله

قوم الحارث في أسر ـــــــــــــ قوم الشاعر طُلَقاء وصقور

قوم الحارث صرعى ـــــــــــــ قوم الشاعر أحياء

قوم الحارث في ذلّ ـــــــــــــ قوم الشاعر بيض الوجوه

قوم الحارث جبناء ـــــــــــــ قوم الشاعر شجعان

يعتبرالتضاد وقود العاطفة والشعر ، وكلّما تصاعد التضاد في الشعر ، كلّما أصبح الغزل أزهى ، والهجاء أفتك ، والمدح أرفع ، والرثاء أفجع ، وهكذا دواليك ...فالقصيدة إذن قِدرٌ تحتهجمرُ التصادم على أنّ التضاد تكامل ، إذ أنّ الحياة لا تستقيم ولا تنمو إلاّ بهذه الثنائيات: الخير والشر ، الهدوء والعصف ، السهل والوعر ...ولا يغرب عن الذّهن أن المسافة كبيرة بين الشيء وضده ، مما يصعّد التأزّم ، وبالتّالي يغدو الشعر مؤثراً .

البنية المجازيّة في النصّ

حين تُذكر كلمة مجاز، فإنّها تُثير كلمةَ الحقيقة . وبلُغةٍ أوضح فإن الشعراء يعدلون عن الكلمات الحقيقيّة ويستبدلونها بكلمات مجازيّة أكثر توهّجاً بالدّلالة والإثارة والإيماء، فهذه الكلمات تفرّخ الصور، والخيالات، إلى حدٍّ يصبح فيه الكلام القليل يثيرالكثير من المعاني والدّلالات .وفي المجاز يكسّر الشاعر اللّغة المألوفة ، ويحيلُها إلى لغة خاصّة به من أجل القبض على الفكرة التي يسعى إليها، فمرّةً يقبح ومرّةً يجمّل ، ومرّةً يصغّر ومرّةً يكبِّر ، ومرةًيوضّح ومرةً يخفي ... واللعبة المجازيّة لا يتقنها إلا شاعر ذو مهارة فنية عالية.

ولنتجوّل في النصّ لنقرأ المستوى المجازي فيه .استعاض عن المرأة بكلمة خريدة ، والخريدة هي اللؤلؤة التي لم تُخرق وريقها لم يعد ريقاً عاديّاً بل مسكاً ، أو خمرة . لحمها مصقول كالرّخام . جسمها غصن متمايل . واستعاض عن ذلّ الحارث بنجاته .الطحين يكون للقمح ، ولكنه هنا للجثث . والشجاع هنا صقر .وكنّى عن المسلمين بعبارة بيض الوجوه.

المحاضرة السّابعة

كعب بن مالك

* كعب بن مالك :أحد شعراء الرسول علية الصلاة والسّلام ، ممّن استبسلوافي الدّفاع عن الإسلام بالكلمة الشعريّة ضد أذى شعرقريش ، فكان شاعراً مُجيداً كما قال ابن سلام ، وكان مجوّداً مطبوعاً كما قال البغدادي في خزانة الأدب

. شهد المشاهد كلها مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما عدا تبوك ، تُوفي كعب في عهد معاوية سنة (٥٠) للهجرة ، و أكثرُ شعرِه في وقائع المسلمين والمشركين ، وفي رثاء الرسول (صلى الله عليه وسلم)، و أصحابه.
سوقُ لكعب قصيدة قالها ، ردّاً على الشاعر المكّي (ضرار بن الخطّاب الفهري) ، وهذا الأخير من الشعراء الذين حاربوا الإسلام بالشعر والسيف ، ولكنّه أسلم بعد الفتح .

قصيدة كعب

١-عجبتَ لأمر اللهِ واللهُ قادرُ على ما أراد ليس لله قاهرُ
٢-قضى يومُ بدْرٍ أن نلاقي معشراً بَغوا وسبيلُ البغي بالنّاسِ جائرُ
٣-وقد حشدوا واستنفروا من يليهم من النّاسِ حتى جمعُهم متكاثرُ
٤-وسارت إلينا لا تُحاولُ غيرَنا بأجمعها كعبٌ جميعاً وعامرُ
٥-وفينا رسولُ الله والأوسُ حولَه له معقِلٌ منهم عزيزٌ وناصرُ
٦-شهدنا بأنّ اللهَ لا ربّ غيرُه وأنّ رسولَ الله بالحقّ ظاهرُ
٧-وقد عُرّيت بيضٌ خفافٌ كأنّها مقابيسُ يُزهيها لعينك شاهرُ
٨-فكُبّ أبو جهلٍ صريعاً لوجهه وعتبةُ قد غادَرْنه وهو عافرُ
٩-وشيبةُ والتّيميّ غادرْنَ في الوغى وما منهمُ إلا بذي العرشِ كافرُ
١٠-فأمسوا وقودَ النّار في مستقرّها وكلّ كفورٍ في جهنّم صائرُ
١١- وكان رسولُ الله قال أقبلوا فولّوا وقالوا إنما أنتَ ساحرُ

معاني الألفاظ : (معقل : حصن منيع عُرّيت بيضٌ : بُدُلّت السّيوف . مقابيس : مشاعل . يُزهي :يحرّك . عافر : معفّر بالتراب . شيبة : هو أخو عتبة بن ربيعة . التيمي :رجل من قبيلة تيم قُتل يوم بدر).

- جولة في معاني النصّ يوجّه كعب الخطاب للشّاعر ضرار بما بالك تعجبُ لانتصار المسلمين عليكم ؟ إنّما الله هو الذي هزمكم ، وهو الذي قضى بهذه المعركة (بدر) ، كسر شوكة قريش التي طغت في البلاد ، حين احتشدت لحرب المسلمين .ويفخر كعب بالأنصار الذين التفّوا حول الرسول (عليه الصلاة والسلام)، ومنعوه وعزّروه .
وهذه المواجهة تؤكد أن الله لا ربّ غيره ، وأن الرسول (عليه الصلاة والسلام)جاء بالحقّ .
تصدّى المسلمون لكم (قريش) بأسلحتهم بكل شجاعة ، وأطاحوا برموز الكفر ، أبي جهل ، وعتبة ، وشيبة والتيمي ،ومآلهم
جهنّم ، وما كانوا ليلاقوا هذا المصير لو أنّهم استجابوا لنداء رسول الله (عليه الصلاة والسلام) ، حين دعاهم للإسلام ، لكنهم أبوا دعوته ، ورموه بالسحرّ ، فكانت إرادة الله أن يهلكهم .
تخلو القصيدة من أيّ صدى جاهلي ، وجاءت إسلاميّة مبنى ومعنى وقد وظّف كعب المعاني الدينيّة أيّما توظيف ، وكشف عجزَهم وخزيهم في مواجهة رجالٍ أيّدهم الله .
وفي الحقّ المعاني ، نُرى ما هي العيوب التي نسبها كعب إلى كفّار قريش ؟ وما هي المفاخر التي نسبها الشّاعر إلى المسلمين ؟
أما العيوب الموجّهة إلى الكفّار فهي : قريش بغتوجارت ، قريش حاربت الحقّ ، قريش انهزمت وقُتل أعيانها ، قريش تعفّرت بالتراب والذلّ . أمّا مفاخر المسلمين فهي : الشجاعة بوجه طغيان قريش ، للمسلمين شرف قيادة الرسول (عليه الصلاة والسلام) ، التفاف الأنصار حوله ، المسلمون ساروا على درب الهُدى ، المسلمون أهانوا الكفّار وهزموهم .
وخلاصة القول ، فإننا نرى أن المعاني التي طرقها الشّاعر ، هي جديدة ،دخلت إلى الشعر العربي .وهذه الجدّة كانت استجابة لرأي الإسلام في رسالة الشعر .

- مُعجم القصيدة (ألفاظها) لو تفحّصنا النصّ السابق ، فسنلاحظ أنّ ألفاظه في معظمها تولّدت دلالاتها الجديدة في العهد الإسلامي ، مما يؤكّد أن الألفاظ الجاهلية بدأت تنحسر أمام الثورة الإسلامية التي امتدت إلى الأدب والشعر : (الله ، قاهر ، بدر ، سبيل الله ، رسول الله ، الأوس ، ربّ ، شهد ، حقّ ، كُبّ ، كافر ، ذو العرش ، نار ، مستقرّ ، جهنّم ....)

- النزعة السّرديّة في النصّ: لاحظُ في النصّ ميلاً إلى السّرد القصصي ، وتتبّع الأحداث ، من بدايتها وحتى نهايتها ، بمعنى أن الأبيات الشعريّة تواكب الأحداث ، تبدأ من حيث يجب أن تبدأ ، وتنتهي إلى خاتمة متساوقة مع خاتمة الأحداث ،أي أنّ هناك انسجاماً بين

ما جرى خارج النصّ الشعريّ ، وداخل النصّ الشعري كيف ؟ من البيت الأوّل أشار إلى الدّهشة التي أصابت الشاعر ضرارا من هزيمة حزبه ، ثمّ يُورد الأحداث أولاً فأوّل :المواجهة بين المعسكرين في بدر ،بعدما حشدت قريش عدتّها ، واجهت الرسول (عليه الصلاة والسلام) وحزبه من الأنصار والمهاجرين ، جرت المعركة ، واستخدمت الأسلحة ، وكانت نتيجة المعركة هزيمة المشركين وسقوط رموزِ هم وإذا تابعنا الأبيات ، فإنّها تتّجه بما يتوافق مع خاتمة طبيعيّة للأحداث ، إذ أنّ موتاهم إلى جهنّم ..

- هيئة القصيدة : كما هو ملحوظ ، فإنها انصبّت على موضوعٍ واحد، ولم تتعدد أغراضُها ، فليس فيها مقدماتٌ طلليّة ، أو موضوع خارج الغرض الأساسيّ هذا ما يشير إلى أنّ الشعر الإسلامي بدأ يتّجه إلى التخلّص من الإرث الفنّي الجاهليّ .
- ضعف النّص الشعري من الناحية الفنيّة :

نعود إلى ما قاله الأصمعي : الشعر إذا دخل باب الخير لان وضعف . النقّاد أجمعوا أنّ شعر حسّان في الجاهلية أجزل من شعره في الإسلام وحتى في الأحكام النقديّة الحديثة ، فإنّها تؤكّد هذا المذهب ، إذ ترى أن سلطة الفكرة (الإيدلوجيا)على الشاعر تمنعه من الإبداع الفنّي ،

وأنّ النصّ بعامّة لا يكون إبداعيّاً إلا إذا انعتق من الالتزام بفكرةٍ ما ولكنّ دعاة الشعر الإسلامي حديثاً نفوا هذا الرأيّ وقالوا :إن الأديب أو الشاعر يمكنه أن يكون مبدعاً من الناحية الأسلوبيّة ، ويمكنه أن يُظهر رسالته الدينيّة في أسلوب جميل ومبدع ومؤثّر.

وفي العودة إلى النصّ كعب بن مالك ، فإنّنا نلاحظ أن الشاعر لم يلائم بين الجانب الفنّي وموضوع السّياسة والدّين ، وهذا ما أكده الناقد عبد القادر القطّ . فالأسلوب التقريري

المباشر أضعف شعرَه ، فليس في شعره ديباجةٌ فنيّة ، ولا رواء ، و لا خيال خلاّق . فالعرب تستقبح التصريح في الشعر ، وتُؤْثِرُ التلميح والإيماء . فبلاغة الشعر تكمن في إثارة الأشياء لا في قولها.

المحاضرة الثامنة

الشاعرة قتيلة بنت النضّر بن الحارث

لهذه الشاعرة قصيدة في رثاء أبيها النّضر بن الحارث، وكان النضّر من ألدّ أعداء المسلمين، فلما ظفر الرسول (صلى الله عليه وسلم) به في يوم بدر بين أسرى قريش، أمر بقتله، فلمّا بلغ الخبر مسمع قتيلة رثته بقصيدة:

١. يا راكباً إنّ الأثيلَ مظنّـــــةٌ من بعد خامسةٍ وأنت مُوقّــقُ
٢. أبلغْ بها ميْتاً بأنّ تحيـــــــةً ما إن تزالُ بها النّجائبُ تخفِقُ
٣. مني إليه وعبرةً مسفوحـــــةً جادت لواكفِها وأخرى تخنُــقُ
٤. هل يسمعنّي النّضرُ إن ناديتُه أم كيف يسمعُ ميّتٌ لا ينطِــقُ
٥. أمحمدٌ يا خيرَ ضنءٍ كريمـــةً في قومِها والفحلُ فحلٌ مُعْرِ قُ
٦. ما كان ضرّك لو مَننتَ وربمّا مَنّ الفتى وهو المغيظُ المُحَنقُ
٧. فالنّضرُ أقربُ مَن أسرتَ قرابةً وأحقّهم إن كان عتْقٌ يُعتَــقُ
٨. ظلّت سيوفُ بني أبيه تنوشُــهُ لله أرحامٌ هناك تُشــقّــــــقُ
٩. صبراً يُقادُ إلى المنيّةِ مُتعبــــاً رَسَفَ المقيّدُ وهو عانٍ موثَقُ

* معاني الألفاظ: (الأثيل: موضع قرب المدينة.مظنّة:موضع وقع فيه الظنّ . النجائب: الإبل الكريمة. تخفق: تسرع. الواكف: السائل. الضنء: الأصل.مُعرقُ : كريم. تنوشه:تمزّقه.تُشقق:تقطّع.رَسَف:تحرّك في قيده. العاني: الأسير.)

توضيح لمعاني الأبيات:

الشاعرة قتيلة تتخيل أنّ مسافراً يتوجّه نحو منطقة الأثيل، حيثُ قُتل أبوها، تخاطبه وترجو أن يصل هذا المكان بعد خمس ليال. تطلب منه أن يحمل تحياتِها إلى والدها المدفون هناك.وأن يبلغهُ حزنها، وأمرَ دمعها الذي لايكفّ عن

الجريان، وعن دمعٍ آخر حبيس العين وهيهاتَ لميتٍ مسمع! ثم تسوق عتابها إلى محمدٍ (صلى الله عليه وسلم)، فهو ينتمي إلى أحسابٍ عريقة، فما ضرّهُ أن يصفح عن أبيها، ويبقيهِ حياً . على أنها تعترف أن أباها اقترف من الأفعال ما أغاض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولكنّ الفتى يسمح برغمِ غيضهِ. وتختتم الشاعرة بوصف مصرع والدها، الذي مزّقته سيوف بني جلدته من قريش، وتعجب لهذا الرحم الذي يتمزّق ويتفرّق. ويخبرنا الجاحظ أنّ الشّاعرة قتيلة استوقفت محمداً (صلى الله عليه وسلم) وهو يطوف، وأنشدته شعرها بعد مقتل أبيها، فرقّ لها، وقال: لو كُنتُ سمعتُ شعرها هذا ما قتلته.

ظاهرة الموضوع الواحد في شعر صدر الإسلام:

في هذا العهد شاع شعر المقطوعات، أو شعر القصائد ذات الموضوع الواحد. وفيه يقصر الشاعر قصيدته على حدثٍ محدّد، من

دون أن يلجأ إلى الأغراض المتعددة ،كما هو الحال في العصرالجاهليّ، وقد يكون السبب تنوّع الأحداث التي عاشها الشعراء بعد الإسلام، والقصيدة الفائتة تمثّل هذه الحالة، إذ نلاحظ أنّ الشاعرة تخلّت عن أي غرض آخر.

هذه القصيدة قيلت في زمن لمّا يترك الشعر علائقه الجاهلية، فالشاعرة ما زالت ترثي أباها بعاطفة بعيدة عن الإسلام، وحين خاطبت الرسول الكريم، خاطبته بوصفه عربياً قرشياً، وليس نبيّ الله. وعرضت الحادثة بوصفها نزاعاً بين أبناء العمومة، لا بين الكفر والإسلام.

المستوى الفنّي في القصيدة:

تعدّ هذه الأبيات من روائع شعر الرّثاء، ووصفها أبو الفرج الأصفهاني بأنّها أكرم شعر مؤثور واعفّه وأكفّه وأحلمه. فيها عتاب أرقّ من النسيم، يذوب رقّة وطلاوة، وقد تأثّر به الرسول (صلى الله عليه وسلم) كما أسلفنا.

إذن القصيدة مؤثرة وجميلة، تُرى ما هي الوسائل الفنيّة التي جعلت النصّ في هذه المنزلة الفنيّة؟

أ. الأساليب اللغويّة في النصّ: (النداءفي البيت الأوّل، الأمر في البيت الثاني، التساؤل في البيت الرابع، النداء في البيت الخامس، التعجّب في البيت السّادس.....) .هذه الأساليب أقرب ما تكون إلى الصّراخ والهياج وشدة التأزّم، ولها قدرة عل إثارة الأشياء أكثر من البوح بها.

ب. الألفاظ ذات الرّنين الحزين: (مظنّة، ميّت، عبرة، مسفوحة، واكف، تخنق، ينطق، أسر، سيوف، تنوشه، أرحام، تشقّق، يُقاد، منيّة، متعجب، رسف، مقيّد، عانٍ، موثّق).

لا شكّ أن هذه الألفاظ تبثّ الأسى، وهي جنائزيّة بامتياز، ولذلك فإنّها؛ أي الألفاظ تملأ النصّ بفائض الألم.

جـ. الألفاظ ذات الدّلالة على حسن الالتماس: حين وصلت الشاعرة إلى موضوع الالتماس، الذي وجهته للرسول (عليه الصلاة والسلام) استخدمت ألفاظاً وتعابير رقيقة، تعكس خطاباً ليّناً فيه رجاء وتواضع، موجّهاً من مفجوعة عاجزة إلى رجلٍ عظيم قادر: (يا خير ضنءٍ، كريم فحل معرّق، ما كان ضرّك، لو منننتَ ، وربّما، قرابة، أحقّ ، عتق، أرحام..)

دـ السّياق المنطقي في النصّ: (كيف يسمع ميت لا ينطق، يا خير ضنءً، الكريم يصفح، استهجانها لخلاف الأقارب ،ولا يجوز أن يُقتل إنسان وهو مقيدّ ومأسور). بعض هذه القيم جاهليّة ، وبعضها إسلاميّة، استخدمتها الشاعرة لدعم فكرتها، وإقامة الدليل على وجوب حزنها.

هـ. إيقاع القافية المؤثّر: القافية حرف القاف، وهو صوت يقرع الأذن في نهاية كل بيت، أو قلْ في نهاية كل فكرة، وهذا الحرف يُحدث صوتاً قاسياً موجعاً ينسجم مع الفاجعة التي تتحدث عنها الشاعرة.

و. الوصف المؤثّر: لم تتوسع الشاعرة بوصف مقتل والدها، ولكنّها ضغطت الحادثة في بيتين، هما الثامن والتاسع. فهذا والدها في قيدهِ مكبول ومأسور، لا حول له ولا قوة، يُقاد إلى الموت، تمزّقهُ السيوف، وأيُ سيوف؟ إنها سيوف بني جلدتهِ!

ز. إيجاز الفاجعة بأبيات قليلة. العرب تستملحُ القليل الذي يُغني عن الكثير، والتلميح عندهم أبلغ من التصريح. فالشاعرة عرضت الموضوع بأبيات قليلة مؤثّرة، من دون حشو أو تزيّد، أي أنّها أعطت القليل الذي يثير الكثير، وهو مرْكبٌ لا يركبهُ إلا الفحول.

المحاضرة التاسعة

كعب بن زهير:

سبق وأن ترجمنا لهذا الشاعر، الذي أوجع المسلمين بشعرهِ قبل أن يدخل الإسلام. وهو صاحب قصيدة البردة التي أشرنا إليها آنفاً . ونعرض له قصيدة قالها في مدح الأنصار:

١. من سرهُ كرمُ الحياةِ فلا يزل في مقنبٍ من صالحِي الأنصار
٢. ورثوا المكارم كابراًعن كابرٍ إن الخيار هم بنو الأخيـــار
٣. المكرِمِين هين السمهريّ بـــأذرعٍ كسوالفِ الهندي غيرِ قصـار
٤. والناظرين بأعينٍ محمـــــرّةٍ كالجمرِ غيرِ كليلة الإبصـــار
٥. والبائعِين نفوسَهم لنبيهـــــم للموتِ يوم تعانقٍ كورَارِ
٦. يتطهرون يرونهُ ذُسْكاً لهم- بدماءِ مَن علِقوا من الكفار
٧. وإذا حللتَ ليمنعوكَ إليهـــــم أصبحت عند معاقل الأعفار
٨. لو يعلمُ الأقوامُ علمِي كلّـــــه فيهم لصدّقني الذين أُماري
٩. قومٌ إذا خوت النجومُ فإنهـــم للطارقين النازلين مقـاري
١٠. في البُزِّ من غسانَ من جرثومةٍ أعيتْ محافرَها على المنقارِ

* معاني الألفاظ: (المقنب: القوم على ظهور الخيل. السمهري: الرمح. سوالف الهندي: حواشي السيف. المعاقل: المواضع المحصّنة.

- الأعفار: جمع عفر وهو ولد الوعل.أُماري:أُجادل. خوت النجوم: يقصد بها إذا امتنع المطر. طارقون: زوار الليل. المقاري: الجفان التي يقدم بها الطعام. جرثومة: أصل الشيء أو التراب. أعيت: أعجزت. المحافر: موضع الحفر من الأرض. المنقار للطائر: ما ينقر به الأرض بحثاً عن طعامه).

معاني النّص: تُرى، ماهي الصفات التي نسبها إلى الأنصار؟ أهي من العصرالجاهلي؟أم من جديد العصرالإسلامي،أم جمع بينهما؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة ،لابد أن نتعرف على القيم المدحية التي نسبها للأنصار.

من يعيش في كنفهم يعيش عزيزا.ينحدرون من سلالات كريمةأشدّاء على أعدائهم.أوفياء لنبيهم الكريميضحّون بأنفسهم من أجله.يجيرون مَن يلجأ إليهم ويمنعونه.كرماء في وقت العسرة.

لوقمنا بإحصائية مبسطة،لألفيناه مدحهم بما يلي:حماية اللاجئ ،من أرومة أصيلة،شجعان وكرماءوهذه السّمات الأربع هي معايير السيادة في العصر السابق للإسلام،وهي فاشية بمدائحهم.على أنها لاتتصادم مع القيم الإسلامية.أما الصّفة الخامسة فهي إسلامية من غير منازع وهي حب الجهاد.والسادسة هي الوفاء للرسول الكريم،وكذلك الأمر فهي منتج إسلامي.وللأمر دلالته،فالشعراء المخضرمون لم ينتقلوا بشكل مباغت من قيم الفن الجاهلي إلى قيم الفن الإسلامي،أو قل لم تتشكّل لديهم شاعريّة تمتصّ الثقافة الإسلامية الجديدة.

وشاعر مثل كعب بن زهير أينع شعره في العصر الجاهلي،وتربّى في مدرسة أبيه الشعرية،لايمكنُه أن يتخلّى عن موروثه على نحو سهلوهذا الحكم يصحّ على سائر الشعراء المخضرمين،لاسيّما الذين لم تكن لهم علاقة مباشرة مع الإسلام.

بناء القصيدةعرفنا أنّ القصيدة الجاهلية،وخاصة المدحية تميزت بكثرة عناصرها،ففيها النسيب،وفيها الشكوى،وأحيانا الخمرة،وفيها الوصف،وفيها المديح.إلاّ أنّ الشعراء في صدر الإسلام بدأوا يتخلّون عن هذه العناصر،واتجهوا إلى الموضوع الواحد،من دون تطويل في القصيدةوالقصيدة التي بين أيدينا عُرّيت تماما من المقدمة الغزلية الطللية،كما وخلت من أي عنصر دخيل،وتركّزت على موضوع واحد.

ألفاظ القصيدة:لمعالجة هذا الموضوع،سأجيب عن الأسئلة التالية:هل الألفاظ تُعادل المعاني؟هل هي من الماضي،أم من إفرازات الإسلام؟قبل الإجابة لابد من تحديد موضوع القصيدة.فالموضوع هو المدح.فهل هذه الألفاظ أسعفت الشاعر في استجلاء مدحه؟هل كانت مباشرة،أم انحازت عن معناها الأصلي،لتغدو أكثر شاعرية؟فيما يلي سأتسقّط بعض الألفاظ:(كرم،مقنب،مكارم،كابر،أخيار،مكرهين،سمهري،أذرع،هندي،أعين محمرّة،دماء،يمنعوك،معاقل،أعفار،قوم،طارق،نازل،مقاري،غرّ،جرثومة،أعيت)

لاشك أنّ هذه الألفاظ مؤهلة أن تشكّل معجما لحقل المديح،وأي مديح؟إنه المديح الجاهلي.وهناك ألفاظ قليلة تقابل المديح الإسلامي :(أنصار،أخيار،بائع نفسه،نبيهم،يتطهرون،نسك)تؤكد هذه الإحصائية أنّ الألفاظ توازت مع حجم الإرث المدحي الجاهلي،وما استجد في الإسلام من قيم مدحية،فقد كثرت الألفاظ المتداولة في العصر الجاهلي،وقلّت الألفاظ المُنتجة إسلاميا.

ّلمعن التساؤل الآخر،هل كانت مباشرة،أم انحازت عن معناها الأصلي؟للإيضاح،فإنّ الألفاظ إن كانت مباشرة تُضعف النصّ الشعري،وإن كانت منحازة عن معناها الأصلي،فإنها تتوهّج بالإثارة،والإيحاء،وتغدو أكبرمن معانيها،كما تغدو جمرا يوقد النص الشعري،تلهبه،كما لوكانت

وقودا عاطفيلألفاظ النصّ في معظمها مباشِرة،مما جعل النصّ باهتا.

المستوى التركيبي في قصيدة كعب:ونقصد بالمستوى التركيبي الجملة في النصّ .ومن مواصفات الجملة الشعرية التي تُشيع الجمال في الشعر:شيوع الجملة الفعلية ؛لأنها أوفق للا نفعال الشعري إلتّراصف بين الجمل،والابتعادعن المكارهة،والحشو،وأن يقدّم الشاعر ماحقّه التقديم،ويؤخر ماحقّه التأخير إلتوقّق بوسائل الفصل والوصل بين الجمل.

فهل توفّرت هذه الشروط في جمل النص الشعري؟في البيت الأول؛الجملة:(فلا يزل في مقنب من صالحي الأنصار)،ليس فيها انسياب،بل جاءت اقتسارا.في البيت الثالث؛(كسوالف الهندي غير قصار)،جاءت الصفة(غيرقصار)لاتؤدي المستوى الفني المرتجى،وكذلك(غير كليلة الإبصار)؛فقد أضاف مضافين إلى مضاف واحد؛مما يسيء إلى سلامة الجملة.وفي البيت السادس نلاحظ أكثر من خلل في التركيب،الجملة المعترضة(يرونه نسكا إليهم)،أقحمت كرها.(ومن علقوا من الكفار)،تخلو من السلاسة.والكثير من شروط الجملة لم يتحقق.

مستوى القافية في القصيدة:يقولونإلشعر كلام موزون مُقفّى يرضي الأذن،فهل أرضى كعب الأذن بقافيته؟والقافية يجب أن يقتضيها البيت الشعري،لا تحلّ محلّها قافية أخرى،تكمل البيت وتجمّله،ويجب أن تأتي مُرتقبة ومتوقّعة،لا مُخيّبة للظنومن البِ ِ ر ّأن تكون حروفها قليلة لتُهامس الأذان والوجدان.ومرة ثانية نسأل،هل توفرت هذه الشروط بقافية الشاعر؟في البيت الثاني:(بنوالأخيارمتوقّعة وتلقائية بلاعسف)،في البيت الثالث:(غير قصار،مخالفة للمتوقع)،كذلك الأمرفي الرابع.في الثامن:(الذي أماري،أقحمها الشاعر إقحاما).أماحروفها فهي كثيرة

الحروف،وهو ماستقبحه العرب في القافية.

المحاضرة العاشرة

النثّر في صدر الإسلام/ موضوعاته وخصائصه:

*حال النثرعند مجيء الإسلام :

لم يصلنا من النثر الجاهلي إلا القليل،وهو ما وضّحه الجاحظ بقوله:(فلم يُحفظ من المنثور عشره).ويعود السبب إلى تأخر التدوين عند العرب،خلافا للشعر الذي سهل حفظه؛بسبب قافيته ووزنه. جاء أغلب النثر في الخطابة،وبعضه في المنافرات،وسجع الكهّان،والأمثال والح ِ ِ كم.

ونثرهم بعامّته لم يكن متعمّقا في شؤون حياتهمشكك بعضهم بوجود النثر عند العرب،إلا أنّ القرائن الكثيرة تثبت أنّ العرب كانوا على حِظة من الأدب النثري.فهم أهل فصاحة وبيان،وجاء القرآن ليتحداهم في لغتهم، وقد حرصوا على تحسين كلامهم

بالبديع والجناس والطّباق،ونزعوا للخيال في خطبهم ووصاياهم وأسجاعهم،وأمثلتهم وحِكمهم.وليس غريبا أن يكون للعرب نثر،فهم يفوهون كثيرا ويفعلون قليلا!

*تطور النثر في صدر الإسلام:

الثورة الإسلامية التي زلزلت قِيم العرب،امتدت إلى الأدب،ولا سيّما النثر.واستعان المسلمون بالنثر لتوطيد دعوتهم،ولذلك نما في موضوعه وشكله.وسقطت منه القيم التي تتصادم مع الإسلام،مثل أسجاع الكهّان الملتصقة بالحياة الوثنية،وكذلك المنافرات والمفاخرات التي تثيرالشحناء والقبلية.

اختفت الأمثال في هذا الطور ،بسبب انشغال الناس بالجهاد وشؤون الدعوةوشحّت الحِكمة؛لانبهار الناس بالقرآن الكريم والحديث الشريف،إلا أنّ الخطابة حظيت باهتمام واسع،ولعبت دورا كبيرإعلى أنّ الوصايا شهدت نشاطا ملحوظا،وكذلك الرسائل،بوصفها وسيلة ضرورية في نشر الدعوة،وإبرام العهود والمواثيق.

إذا كان الشعر سلطان الساحة الأدبية في العصر الجاهلي،فإنّ النثر هو سلطان الساحة الأدبية في العصر الإسلامي .فقد كان وسيلة الرسول(صلى الله عليه وسلم)لنشر دعوته،كما أنّ النثر فسّر أحكام الدين.

وشاعت الخطابة في الجمعة ولأعياد والحج،وانتشر الصحابة في البقاع والأصقاع يعلّمون العرب الدين والشرائع الجديدة،وبواسطة النثر بيّن الخلفاء مناهجهم الإدارية والسياسية،وكاتبوا عمالهم وحكامهم في الأطراف والثغور،وحثّوهم على الجهاد،والتمسك بالدين الحنيف،وبالنثر نهضت البراهين والحجج،حين دبّ الخلاف بين المسلمين.

*أشكال النثر في صدر الإسلام:

أ-الخطابة:قد تبوّأت منزلة رفيعة عند العرب ،وفي العهد الإسلامي وُظفت لخدمة الإسلام،وأسهم في انتشارها انصراف المسلمين عن الشعر.

ب –الوصايا:اشتد اقتضاء الوصايا في هذا العهد،باعتبارها وسيلة الخليفة لرسم السياسة اللازمة لنجاح عماله وحكامه وقواده.

ج –الكتابة:كان للكتابة شأن خطير،لأنها وسيلة لمخاطبة الأمم والأمصار للدخول في الإسلام،كما سُجّلت فيها العقود والمواثيق،وخاصة بعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية.

د –الحِكم:جاءت الحكم في هدي القرآن الكريم،ودارت على ألسنة الخلفاء،على أن لاننسى أنّ الأحاديث الشريفة كانت بعامتّها حِكما.

الخطابة

أسباب ازدهار الخطابة في الطّور الإسلامي:

أ-لجأ المسلمون إلى مخاطبة الناس بألسنتهم،لشيوع الأمية،وقلة الكتابة،ذلك من أجل دعوة الناس إلى الإسلام،وإقناعهم به،وإيصال شرائعه.

ب –إذا كان الشعر يلي العاطفة،فإنّ الخطابة تلازم العقل،ولذلك استغلّها المسلمون كوسيلة عقلية منطقية لمخاطبة الناس في أمر هذا الدين الجديد.

ج –غدت الخطابة وسيلة للتشريع،ورسم المنهج الذي تعتمده الدولة في تنظيم المجتمع.

د –تعتبر الخطابة وسيلة اتصال ناجحة بين الرسول(عليه الصلاة والسلام)ورعيته،وكذلك بين الخلفاء ورعاياهم،وبين الولاة والأمصار،وبين القادة والجيوش.

ه –ثمّة أحداث خطيرة أسهمت في الحراك الخطابي،مثل الجدل حول الخلافة،وارتداد بعض العرب،ومقتل عثمان،وخلاف علي ومعاوية،وخلاف علي والخوارج.

* موضوعات الخطابة:

أ –خطب المواعظ والتشريع. ب –خطب الجهاد. ج –خطب السياسة وبيان منهج الحكم.

نماذج من الخطابة/دراسة

* خطبة الرسول(صلى الله عليه وسلم)في فتح مكّة:

((لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له،صدق وعده،ونصر عبده،وهزم الأحزاب وحده،ألا كلّ مأثرة أو دم أو مال يُدّعى فهو تحت قدميّ هاتين إلاّ سدانة البيت وسقاية الحج،ألاوقتيل الخطأ العمد بالسوط والعصا فيه الديّة مغلّظة،منها أربعون خَلِفة،وفي بطونها أولادها،يا معشر قريش إنّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية.يُاأيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم،إنّ الله عليم خبير،يا معشر قريش،ويا أهل مكّة ما ترون أنّي فاعل بكم؟؟؟اذهبوا فأنتم الطلقاء)).

*معاني الألفاظ:(المأثرة:الخصلة التي يتوارثها الناس وتدور على ألسنتهم.سدانة:خدم.الخَلِفة:الحامل من الإبل .نخوة:فخر) .

*معاني الخطبة:

أ –التوحيد:هو ما ضحّى المسلمون في سبيله،منذ فجر الدعوة وحتى فتح مكّة،وما رافق ذلك من هجرة وحروب،الأمر الذي فنّد ماقالته قريش ومافعلته وما عبدته من الأصنام،فلاعزّة إلا لله، فهو الذي صدق وعده،وهو الذي هزم أحزاب قريش.

ب –التشريع:ضمّنت الخطبة جانبا من التشريع،فكلّ مال أو دم هُدر في الجاهلية لا حقّ فيه إلاّ خدمة البيت وسقاية الحجيج،وفي
قتل الخطأ العمد ديّة الأربعين من النوق ذوات المخاض.
ج –المساواة:زكّزت الخطبة على مبدأ المساواة،وسيقت فيها آية كريمة تؤكد فكرة المساواة.
د –سماحة الإسلام:وفي الخطبة أعتق الرسول(صلى الله عليه وسلم)مَن آذاه وأخرجه من ديارإفّه عفْوٌ عند المقدرة.
*أسلوب الخطبة:
متراصفة ،يؤدي بعضها إلى بعض،من دون حشو. أ –جُملها
ب –واضحة وسهلة الألفاظ.
ج –خلت من الخيال،لأنّ مقامها التشريعي لا يتوافق مع الخيال.
د –تخللها بعض السجع المطبوع الذي لا تكلّف فيه،ويعكس
ذلك عناية الرسول الكريم بنظم الكلام،من دون الإساءة إلى
المعنى(وعده،عبده،وحده).
ه-كثرت أساليبها الإنشائية؛أمر،استفهام،نداء:يامعشر،ماترون،اذهبوا

المحاضرة الحادية عشرة

خطبة الإمام علي
هذه الخطبة وردت في كتاب البيان والتّبيين للجاحظ .
أما بعدُ فإنّ الدّنيا قد أدبرت وآذنت بوداع ، وإنّ الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطّلاع .وإنّ المضمار اليوم والسبّاق غداً ، ألا وإنّكم في أيّامِ أملٍ من ورائه أجل ، فمن أظل في أيّام أملِهِ قبل حضور أجلِه فقد نفعه عملُه ، وضرّه أملهُ.ألا فاعملوا في الرّغبة كما تعملون له في الرّهبة ، ألا وإنّي لم أرَ كالجنّة نام طالبُها ، ولا كالنّار نام هاربُها .ألا وإنّه من لم ينفعْه الحقُّ يضرّه الباطلُ ، ومن لم يستقم به الهدى يجرِ به الضلالُ إلى الرّدي .ألا وإنكم قد أُمرتم بالظعن ودُللتم على الزّاد ، وإنّ أخوفَ ما أخافُ عليكم اتّباع الهوى وطولُ الأمل)) .

- معاني الألفاظ : (المضمار الفترة التي تضمّر فيها الخيل استعداداً للسّباق الظّعن : الرحيل .الزّاد : طعام المسافر) .
- معاني الخطبة :الخطبة من ألفها إلى يائها مستلهمة من القرآن الكريم والحديث الشّريف. ولا غرابة في ذلك ، فإن الإمام موصوف بالعلم والزّهد والحقّ ، الخطبة هي حُزمة من الحقائق والمواعظ والعِبر، ويمكن إيجازها بما يلي :

أ-يتوجّب على المرء أن يعمل في الدنيا ليضمن حسن المقام في الآخرة .
ب-من يقصّر في عمله في العاجلة ، قد يفقد أمله في الآجلة .
ج -النّاس يعيشون غفلة في دنياهم ، ناسين عذاب جهنم ، ونعيم الجنّة .
د-من لا ينفعه الحقّ يضرّه الباطل .
ه -من لا يهتدي، يدفعه الضّلال إلى التّهلكة .
أُمر النّاس بالرّحيل عن الدنيا ، وأُعطوا الزّاد اللازم استعدادا للرّحيل.

- أسلوب الخطبة : الإمام علي أفصح الخطباء وأبلغهم بعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . وهو مكثر في خطبه . وهذه الخطبة تعكس بيانه ، وبلاغته ، وتمكّنه من ناحية اللّغة .

أ- اختار ألفاظه بعناية فائقة ، إذ وضع أفكاره بما يُناسبها من الألفاظ .فألفاظه بوصله إلى معانيه ، فمثلاً : الإدبار للدنيا هو أعلق صورة بالدّنيا العاجلة والتي سرعان ما تدير ظهرها .وإن كلمة مضمار أنسب وصفاً للإقامة المؤقّتة. وإن كلمة الظّعن أكثر دلالة على انتفاء الإقامة في الدنيا ....
ب- الجمل محكمة السّبك ، متراصفة السّياق ، مستقلّة المعنى ، كُلّ جملة تعزّز ما قبلها وتُمهّد لما بعدها .فمثلاً : (الدّنيا أدبرت ، من لم ينفعه الحق يضرّه الباطل ، اعملوا لله في الرغبة ...) هذه الجمل قادرة على تأدية المعنى المرجو بذاتها .وتردُ في الخطبة جملٌ يستدعي بعضها
بعضاً مثل : (من لم يستقم به .يجرِ به الضّلال . وبمقدورنا أن نقول إنّ الجمل ترقى إلى مرتبة دستورٍ عامّ .

شاع في الخطبة البديع والترسّل من غير تكلّف ، مما أكسب الخطبة رونقاً وجمالاً : (أدبرت أقبلت ، دنيا آخرة ، اليوم غدا / عمله أمله ، رغبة رهبة ، طالبها هاربها / أخوف ما أخاف ..إتّباع)

تعجّ الخطبة بالصّور الخياليّة ، ممّا استجلى فكرتَه ، وعزّزها وألقى عليها ظلالاً من الجمال . ومن هذه الصور : التشخيص ، الاستعارة وضرب الأمثلة والأشباه .فمثلاً : (خلع الصّفات الإنسانية على الدّنيا والآخرة ، فهما يقبلان ويدبران)صوّر غفلة النّاس عمّا ينتظرهم في الآخرة بطالب جنّة أو هارب من النّار ، ولنتأمّلْ هذه الصورة الرّائعة المأخوذة من تصوّر النّاس للموت:أُمرتم بالظعن ودُللتم على الزّاد ، فالظعن هو الموت ، والزّاد هو العمل في الدنيا .

الوصايا وأغراضها وأساليبها

أخذت وصايا اتّجاهاً يختلف عن الاتّجاه السّائد في العصر الجاهليّ ، فقد وظّفت لتكريس منهج الدّولة الإسلامية . سارت وصاياهم في محورين رئيسيين ، الأوّل ما وجّهه الخلفاء إلى مَن يتولى أمر المسلمين من بعدهم ، والثّاني ما يصدر عن الخلفاء إلى عمّالهم وقوّادهم ، حين ينيطوا بهم أمراً من أمور المسلمين .على أن بعض الوصايا ظلّ جارياً في الميدان الاجتماعي ، كوصايا الآباء للأبناء ، والأمهات لبناتهنّ ...

وصيّة أبي بكر إلى عمر رضي الله عنهما

قالها الخليفة حين حضرته الوفاة :

((إنّي مُستخلفٌ بعدي ، وموصيك بتقوى الله ، إنّ لله عملاً بالليل لا يقبله بالنّهار ، وعملاً بالنّهار لا يقبله بالليل ، وإنّه لا يقبل نافلة حتى تؤدّى الفريضة ، فإنّما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتّباعهم الحقّ في الدنيا وثقله عليهم ، وحُقّ لميزان لا يوضع فيه إلاّ الحقّ أن يكون ثقيلاً ...إنّ الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ... وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ..وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ، ليكون العبد راغباً راهباً . وإن حفظتَ وصيّتي فلا يكون غائبٌ أحبَّ إليك من الموت ، وهو آتيك ..))

تناولت هذه الوصيّة موضوعاً واحداً ، خلافاً لوصايا العهد الجاهلي التي تعدّدت مواضيعها في جمل موجزة ، كلّ جملة تحتوي فكرة تُغاير الأخرى .

قدّم الخليفة طائفة من اللمحات ، استلهمها من القرآن الكريم والسنّة النبويّة، من دون أن يتطّرق إلى السّياسة والإدارة ، وكأنما الخليفة أيقن أنّ من يتبع هذا النهج ، فسوف لن يضلّ في سياسة الحكم ، وممارسة المسؤوليّة .

إذن قدّم الخليفة أبوبكر إلى خلَفهِ عمر طائفة من الدّروس ، ذات طابع ديني ، مهتدياً بهدي الدين الحنيف :

أ-ذكّره بالوسيلة التي تحقّق مرضاة الله ، للفوز بالآخرة .

ب-ذكّره بتقوى الله ، وصالح العمل .

ج-ذكّره بما ورد في القرآن الكريم من ذكرٍ لأهل الجنّة ، وأهل النّار .

. أسلوب الوصيّة :

أ- طالت جُملها من غير إملال ، لتستوعب هذا العبء الكبير الذي سيحمله الخليفة عمر.

ب- انصبّت الوصية على موضوع واحد .

جـ-أكثر من المقابلات التي من شأنّها إظهار الفكرة من دون لَبس (ليل ، نهار .جنّة ، نار . رحمة ، عذاب . راغبا ، راهبا ...)

د-زيّن الخطبة بالترسّل الحسن : (إنّ لله عملاً بالليل لا يقبله بالنّار ، وعملاً بالنّهار لا يقبله بالليل ...)

هـ - الوضوح وسهولة الألفاظ ، وهو ما يُناسب مقام الوصيّة .

و-نلاحظ أن الخليفة ذوّب تعاليم القرآن الكريم والحديث الشريف في حديثه .

المحاضرة الثانية عشرة

تابع الوصايا وأغراضها وأساليبها

في المحاضرة الفارطة ، تعرّفنا على وصيّة أبي بكر ، الموجّهة إلى الخليفة عمر . وفي هذه المحاضرة سأتناول وصيّة أخرى، لمزيد من التعرّف على هذا الفنّ .

وصية الخليفة عمر لسعد بن أبي وقّ ّاص

وُجّهت هذه الوصيّة إلى سعد ، عندما أُمّر على حرب العراق :

((إنّي يقْك ولحرب العراق فاحفظْ وصيّتي فإنّك تُقدم على أمرٍ شديدٍ كريه، لا يُخلّص منه إلاّحقالّ ، فعوّد نفسك ومَن معك الخير ، واستفتح به ، واعلم أن لكلّ عادة عتاداً ، فعتادُ الخير الصّبر... واعلمأنّ خشية الله تجتمعُ في أمرين :في طاعته واجتناب معصيته ، وإنّما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا والآخرّة ، وعصاه من عصاه بحبّ الدنيا وبغض ِ الآخرة ، وللقلوب حقائقٌ يُنشئها الله إنشاءً ، منها السرّ ومنها العلانيّة ، فأمّا العلانية فأن يكون حامُده وذامّه فيحقّ سواء ، وأمّا السرّ فيُعرفُ بظهور الحكمة من قلبه على لسانه ، وبمحبّة النّاس فلا تزهد في التّحبب ، فإنّ النّبيين قد سألوا محبتَهم ...فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند النّاس ممّن يشرعُ معك في أمرك))

- معاني الوصّية :

لم تتضمّن الوصيّة أوامر قتاليّة ، ولا نصائح عسكريّة تتعلّق بالخطط ، هجوم ، انسحاب ، ونحو ذلك .لا سيّما أن سعداً سيواجه أعتى قوّة ضاربة آنئذٍ وهم الفُرس ، فكأنّ الخليفة عَدَل عن هذا الميدان ، واتّجه إلى ما ينبغي من علاقة بين القائد وربّه ، وبين القائد وجنده ، لإنها المسار الأجدى لتحقيق النّصر .

فهو يُنبّهداً إلى الوقوف بجانب الحقّ ، لأن الحقّ يعصمه عن مكارِه الحروب ويوصيه بتوخّي الصبر ، لأن الصّبْر

يُفضي إلى خشية الله ، والاستجابة لطاعته ، واجتناب معصيته ، كما أوصاه أن يتقرّب من جنده ، أسوةً بالأنبياء ، لأنّ محبّة النّاس من محبّة الله .

. أسلوب الوصيّة :

أفكارها متراصّة ومنسجمة جَاءَت الوصيّة بالمقابلات (الشيء وضده) ، وتأتي المقابلات لتنجلي الفكرة المرتجاه من جوانبها المختلفة ، وكما يقولون الضدّ يظهر حُسنَه الضدّ نأتْ الوصية عن الرّتابة في الأسلوب ، إذ جاءت متنوعة الأساليب ،

فيها الأساليب الخبريّ ّة ، وفيها الإنشائيّة ، ذلك لإضفاء الحيويّة على الوصيّة .

- نتيجة :

التّوجهيّة في الطّور الإسلاميّ مُتّجهاً يختلف عمّا كان دارجاً قبل الإسلام ، إذْ سيّروها في أمورٍ شتّى ، مثل : الدّين ، الدنيا ، وبناء الدولة تجنّبوا البديع والخيال والزّخرفة تأثّروا بالقرآن الكريم ، وانسربت تعاليمُه في مضامين الوصايا ، كما جاءت ألفاظهم سهلة ، وجملهم مُحكمة ، وأفكارهم مُرتّبة.

الكتابة وتطوّرها في صدر الإسلام

أكّد الدكتور ناصر الدين الأسد في كتابه (مصادر الشّعر الجاهلي) . على وجود الكتابة عند العرب الأوائل . فالكتابة عندهم قديمة ، وأثبت معرفتَهم بها ، واتّساعها بين ظهرانيهم ، مما يُبعد عنهم صفة الجهل بها .

واعتنى الإسلام بالكتابة ، لشدّة اقتضائها في نشر الدّعوة وتنظيم المجتمع . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الجانب : ((اقرأباسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم)) وثمّة إشارة قرآنيّة جليّة في دور الكتابة لتنظيم شؤون الحياة : ((يا أيّها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مُسمّى فاكتبوه ....))

وتُظهرُ كُتبُ السّير أن الرسول (عليه الصلاة والسّلام)، كان شديد الحرص على تعلّم أبناء المسلمين القراءة والكتابة ، فقد ورد في خبر أسرى قريش بُعيد معركة بدر ، بأن الرسول (صلى الله عليه وسلّم)أذنَ لمن لا يستطيع فداء نفسه من الأسرى أن يُعلّم عشرة صبيان القراءة والكتابة .

والكتابة التي تعنينا في هذا المقرّر هي التي تدخل في فنون الفنّ الأدبيّ . في أخبار العرب الأوائل ما يدلّ على وجود هذا النوع الأدبي ، لكنّه لم يصل إلينا ، لنرى منزلته الفنيّة ، فعلى سبيل المثال ، خبر الكتاب الذي وجهه السموأل بن عادياء إلى الحارث الغسّاني ، يوصيه في امرئ القيس ، كي يُساعده على استرجاع مُلك أبيه ، والثأر من قاتلي أبيه

. كذلك الكتاب الذي وجهه حنظلة بن أبي سفيان إلى أبيه ، يُعلِمه أن محمداً بن عبد الله ينشر ديناً جديداً ، وكان أبو سفيان خارجا
في إحدى رحلاته التّجاريّة . ويضاف إلى ذلك ما أرسله كعب بن زهير إلى أخيه بُجير، يُعاتبه على دخوله في الإسلام .
و لما جاء الإسلام ، وغدا للمسلمين دولة ، نشطت الكتابة ، كالرسائل الدّيوانيّة ، والرسائل بين الأفراد .والرسّول (عليه الصلاة والسلام) استخدم الكتابة في شؤون الدّين والدّولة ، إذ كان له كُتّاب متخصصون ، وكلٌّ في مجاله . من هؤلاء الكتّاب علي بن أبي طالب ، أُبيّ بن كعب ، عُثمان بن عفّان ، زيد بن ثابت ، معاوية بن أبي سفيان ...

كُتب الرسول (صلى الله عليه وسلم)

جاءت كُتبه في مجالين ، الأوّل :ما كتبه من عهود ومواثيق للقبائل ، الثّاني : ما كتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام .
فأمّا العهود والمواثيق ، فقد بدأت منذ باكورة الدّولة الإسلاميّة في المدينة المنوّرة . في سيرة ابن هشام ، وردت أنباء عن صحيفة كُتبت وادَعَ فيها الرسول اليهود ، وأقرّهم على دينهم وأموالهم ، وما لهم وما عليهم .
وفي صلح الحديبيّة ، كتب الرسول عليه الصلاة والسلام عهد صلح الحديبية .وثمّة عهد إلى ملوك حِمير في اليمن ، ويمكن إضافة المكاتبة المتبادلة بين الرسول
(صلى الله عليه وسلم) ، وخالد بن الوليد ، في شأن بني الحارث بن كعب في نجران .
وأمّا الكتابة إلى الملوك ، فقد وجّه كُتباً إلى كسرى وإلى هرقْل ، والنّجاشي .
يقول الدكتور زكي مبارك إن الكتابة في هذا العهد بُنيت لأداء الغرض فحسب ، من دون تأنّق في البدء والختام . صحيح أنّها جاءت بكلام فصيح وبليغ ،لكنّها ابتعدت عن العناية الفنيّة ، لمصلحة المضمون والمبادئ السياسيّة والأخلاقيّة ، ذلك ما يؤكّد
الدور الخطير الذي لعبته الكتابة .ويمكن إيجاز أسلوب الكتابة في هذا العهد ، أي بعهد الرسّول (عليه الصلاةوالسّلام) ، بما يلي :

أ- الاهتمام بالمضمون ، وليس بالأسلوب .
ب-الاعتماد على المحاور التّالية :مقدّمة ، موضوع ، خاتمة .
ففي المقدمة :البسملة ، والتّحية ، وحمد الله ، وفي الخاتمة : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
جـ - الإيجاز والقصر .

المحاضرة الثالثة عشرة

نماذج من كتابة الرسول(صلى الله عليه وسلّم)

أ-من العهود، ندوّن ما جاء بصحيفة الحديبية:

((هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمنُ فيهنّ النّاس، ويكفّ بعضهم عن بعضعلى أنّه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليّه ردَّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممّن معّه لم يردّوه عليه؛ وإنّ بيننا عيبة مكفوفة، وإنّه لا إسلال ولا إغلال، وأنّه مَن أحبّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه)).

* معاني الألفاظ:(عيبة مكفوفة: صدور منطوية على ما فيها. إسلال: سرقة. إغلال: خيانة).
* المضمون وأسوقُه بالعناصر التّالية:

إقرار بالصّلح بين الطّرفين.
-تعليق الحرب بين الجانبين مدّة عشر سنين، ابتغاء الأمان.
-مَن أتى محمداً من قريش يُردّ إليهم.
-مَن أتى قريشاً من جهة محمد لا يُردّ.
- لا إنكاث ولا خديعة.
-الخيارات مفتوحة، لمن أراد أن يدخل بعهود الطّرفين وعقودهم.

لا شكّ أنّ هذا الصلح كان يتّفق مع عُمر الدعوة، وكانت هذه العهود على ما انطوت عليه تعكس حكمة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، في المعالجة المرحليّة للأحداث. وفي هذه الوثيقة يضمن الرسول (صلى الله عليه وسلم) إنجاز مرحلة ما

من دعوته التي لاقت المعارضة والإيذاء، لذا نهضت هذه الوثيقة بدور كبير، في تأجيل الصّراع وتجميده، ابتغاء نتائج أفضل، وهو ماتمّ فلاًهكذا أعانت الكتابة المسلمين في تعبيد الطريق للإسلام، تماماً كما أعانهم الفنّ الشّعريّ.

أسلوب الوثيقة:

غلّبت الجانب الوظيفيّ على الجانب الفنيّ، فهي لم تحفل بجمال الأسلوب.

- الإيجاز، والابتعاد عن الحشو.
- الفصاحة والوضوح.
- الابتعاد عن الزّخرفة.
- الصّرامة، والابتعاد عن العواطف.

ب .من كتبه عليه الصلاة والسلام إلى الملوك، رسالته إلى النّجاشي:

((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النّجاشي ملك الحبشة....فإني أحمد إليك الله الملك القدّوس السّلام المؤمن المهيمن، وأشهد أنّ عيسى بنَ مريم روحُ الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم البتول..... فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه..... وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له..وقد بعثتُ إليك ابن عمّي جعفراً ونفراً معه من المسلمين فإذا جاؤوك فاقْرِ هِمْ ودَعِ التجبّر.... والسّلام على مَن اتّبع الهدى)).

مضمون الرّسالة:

- البسملة.

ذِكر المُرسِل والمُرسَل إليه.

- التحميد، والتمجيد بصفات الخالق.
- توضيح حقيقة المسيح.
- الدّعوة للإسلام، وترك المُكابرة.
- توصية إلى النجاشي، لإكرام الجالية الإسلامية المهاجرة.

هذا المضمون السّامي، قدّمته الرسالة، كمِدْماكٍ تمهيديّ في تعزيز الدعوة الإسلاميّة ونشرها.

أسلوب الرّسالة:

- بنيتها: مقدمة ، ووسط ، وخاتمة. في المقدمة: البسملة والتحميد. في الوسط: الغرض الأساسي (الدعوة إلى التوحيد، وشرح بعض الحقائق الدينية التاريخية، والتوصية على المهاجرين). الخاتمة: السّلام.

خلت من التأنّق الأسلوبيّ.

-طالت بالمقارنة مع الرّسائل الأخرى.

لم تخرج الرّسالة عمّا أسلفنا من وصفٍ لأسلوب العهود.

الكتابة في عهد الخلفاء

لم يطرأ تطوّر كبير على الكتابة في العهد الراشدي، إلا ما يُذكر عن تشعّبها ، وتنوّع موضوعاتها في عهد عمر وما تلاه، وغدت الكتابة ذاتَ شأن كبير في أعمال الدّولة السّياسيّة والاقتصاديّة.ويُعزى هذا التمدّد إلى العوامل الآتية:

-اتّساع رقعة الدّولة.

- تعدّد جبهات القتال، وكثرة القادة على الجبهات، وكثرة العّمال على الأمصار المفتوحة.
- الخلافات بين المسلمين، كالخلاف بين بعض المسلمين وعثمان، والخلاف بين علي ومن خرج عليه.

رسالة عمر إلى أبي موسى الأشعري

((أما بعد ، فإن القضاء فريضة مُحكَمة مُتّبعة ، فافهم إذا أُدلي إليك ، فإنّه لا ينفعُ تكلّم بحقّ لا نفاذ له، آسِ بين النّاس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريفٌ في حيفك ، ولا يخاف ضعيفٌ من جَورِك والبيّنة على مَن ادّعى واليمين على من أنكر ، والصّلح جائز بين المسلمين ، إلاّ صلحاً حرّم حلالاً ، أو أحلّ حراماً، ولا يمنعنّك قضاءٌ قضيتَه

بالأمفراجعت فيه نفسك، وهُديت فيه لرشدك أن ترجع عنه ، فإن الحقّ قديم، ومراجعة الحقّ خيرٌ من التّمادي في الباطل،

الفهم الفهم عندما يتلجلج في صدرك ما لم يبلغْك في كتاب الله ولا سنّة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، اعرف الأمثال والأشباه وقِس الأمور عند ذلك، ثمّ اعمد إلى أحبّها إلى الله ...واجعل للمدعي حقّاً غائباً أو بيّنة أمداً ينتهي إليه ، فإن أحضر بيّنته أخذتَ

له بحقّه وإلاّ وجّهت عليه القضاء ، فإن ذلك أنفى للشكّ وأجلى للعمى وأبلغ في العذر. المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً في حدّ ، أو مجرّبا عليه شهادة زور ،أو ظنيناً في ولاء أو قرابة ، فإن الله قد تولّى منكم السّرائر ودرأ عنكم الشّبهات ، ثم إياك والقلق .....))

- <u>في المضمون:</u>

اشتملت الرّسالة على حزمة من المرتكزات القضائيّة التي تتحقّق فيها العدالة وينهض بها الحق:

-بيّنت المرتكزات الأساسية للقضاء العادل ، فالبيّنة على مَن ادّعى واليمين على من أنكر.

تؤكّد الرّسالة مبدأً إسلامياً إصلاحياً ، وذلك بتجويز الصّلح.

- لا غضاضة في مراجعة الحكم ، وإعادة النظر فيه.

-مصادر التّشريع هي: كتاب الله ، وسنة رسوله، والاجتهاد، والقياس على الأشباه والنظائر.

- إعطاء الخصوم الفرصة لإظهار حقوقهم وبيّناتهم.

- المسلمون متساوون في شهاداتهم ، ما لم يقع على الشاهد حدّ أو جُرّب عليه شهادة زور ، أو شبهة في ولاء أو قرابة.

-لراسالة تحثّ القاضي على حسن التّعامل مع الخصوم، من دون سأم أو ضجر.

**<u>أسلوب الرّسالة:</u>

-ثمّة محاولة للاعتناء بالأسلوب ، فمثلاً ترد أسجاع ومقابلات من غير تكلّف: (وجهك ، حيفك ،جورك. شريف، ضعيف. ادّعى ، أنكر. حق ، باطل).

-جاءت الأفكار مرتّبة واضحة ، متسلسلة.

-أحاطت الرسالة بجوانب القضاء ، ولكن بصورة مركّزة وموجزة.

-خلَت من العواطف ، واتّسمت بالصّرامة ، وذلك من خلال الأمر والنهي والذّم والتّنبيه: (فافهم ، لا ينفع ، آس ، لا يمنعنّك ، إياك .....)

- يقول طه حسين ، كتب الخلفاء كانت مختصرة، وهي أداء في غير تفنّن أو إثارة لجمال فنّي خاص ، مما نجده عند الشعراء....

المحاضرة الرابعة عشرة

- الحِكم : مدلولها ، وخصائصها

قبل الإسلام، كان العرب يحفلون بالحكمة، ويعود السبب إلى الفراغ، والانعزال في حياة الجاهلي، ممّا دفعه إلى سدّ العجز بواسطة الحكمة،ولذلك ظهر رجال عُرفوا بالحكمة ، مثل أكثم بن صيفيّ ، وهرِم بن خارجة بن سنان، وقبلهم لقمان بن عاد....

في هذا العهد ، لا نجد من اختصّ بالحكمة، وعُرف بها على أنّنا لا نعدم جرَيان الحِكمة على ألسنة الصّحابة، متأثرين بالموروث السّابق للإسلام، إلى جانب تأثّرهم بأساليب القرآن الكريم والحديث الشريف، والحِكمة هنا لا تعادل الفلسفة وإنما هي أقوال صائبة تصدر عن مجرّب للحياة، ومتمرّس بها.

- نماذج من الحكم

"مات حتفَ أنفه". "الآن حَمي الوطيس". "لا يُلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين". " اليد العليا خير من اليد السفلى". " الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة". "رحم الله عبداً قال خيراً فنعم أو سكت فسلم". " رأس العقل بعد الإيمان مداراة النّاس". " إنما يأكل الذئب منكم القاصية".

* أسلوب حِكم الرسول (صلى الله عليه وسلم):

ونعرضه على لسان الجاحظ: ((كلام لم يسبقه إليه عربيّ،ولم يشاركه فيه عجميّ...الكلام الذي قلّت حروفه وكثر عدد معانيه ، وجلّ عن الصُّنعة ، ونزُه عن التكلف .... استعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجرَ الغريب الوحشيّ ، ورغب عن الهجين السوقيّ ، فلم ينطق إلاّ عن ميراث حكمة....))

ب - حِكم الصحابة:

- أبو بكر: " صنائع المعروف تقي مصارع السوء". "أصلحْ نفسك تصلح لك الناس". " ليس مع العزاء مُصيبة ولا مع الجزع فائدة".

- عمر: "من كتم سرّه كان الخيار في يده". " أشقى الولاة من شقيت به رعيته".لا يكن حبك كلَفاً ولا بغضك تلَفاً ". " من لا يعرف الشرّ كان أجدى أن يقع فيه".

- عثمان: "أنتم إلى إمام فعّال أحوج منكم إلى إمام قوّال".

- علي: "النّاس أعداء ما جهلوا". " المرء مخبوء تحت لسانه". "من هذّب لسانه كثر إخوانه ". " الحرمان خير من الامتنان".

- عبدالله بن مسعود: "أوثق العُرى كلمة التّقوى". " خير الغنى غنى النّفس". "السعيد من وُعظ بغيره". " أشرف الموت الشهادة".

- * أسلوب حِكم الصحابة:

- اقتدوا بأسلوب الرسول (عليه الصلاة والسلام).
- الفصاحة والإيجاز ودقّة التعبير.
- اختاروا الألفاظ بعناية.
- اشتملت على ألوان بديعيّة، كالجناس والطّباق والسجع.
- بعضها اشتمل على الخيال.

خصائص النّثر في صدر الإسلام

أ. خصائص المضمون:

- اتّجهوا إلى الموضوع الواحد ، خلافاً للعهد الجاهليّ.
- اتّسعوا في أوجه الكلام، فقد تعددت مجالاته، وأغراضه ، وذلك لاتّساع الدّولة ، واشتجار شؤونها ، إلى جانب وقوفهم على معاني القرآن الكريم.
- نظّموا أفكارهم ومعانيهم.
- جاءت أفكارهم ناضجة ، ومعانيها سامية وعميقة ، نتيجة لاتّساع الثّقافة والفكر
- عكس نثرهم سائر نواحي الحياة التي عاشها المسلمون ، دينيّة ، سياسيّة ، اقتصاديّة ، ثقافية.

ب. خصائص الشكل:

- اختاروا ألفاظهم على نحوٍ فطري.
- أوجزوا ، أو أطنبوا ، وفاقاً لمقتضى الحال.
- تجنّبوا السجع إلى حدٍّ كبير.
- قلّما جنحوا إلى الخيال.
- لا يخلو نثرهم من المقابلات والطباق والجناس ، من غير تكلّف.
- أكثروا من الاقتباس من القرآن الكريم.
- ابتعدوا عن غريب اللّفظ.

خاتمة مهمّة

في ختام محاضراتي، استودعكم الله راجياً أن تكون المادّة المقدّمة في هذه المحاضرات قد كشفت اللّثام عن المرتكزات الأساسية للأدب الإسلامي؛ على نحوٍ يلبيّ حاجة الطّالب ، وبمقدارٍ يَحسُن السّكوت عليه ، وبدافعٍ يحفزُ الطّالب للتّزيد من مصادر أخرى، واستميحُ الطالبَ عذراً إن كان ثمّة تقصير على أنّ الكمال لله تعالى.

كما وآمل أن يكون عرض المادّة قد جاء بصورة أقرب إلى الوضوح والسّهولة، إنْ ورد لَبس، فبمقدور الطّالب أن يستبينَهُ بوسائل الاتصال المتاحة له في الجامعة، أو مدرّس المادة.

فيما يلي أسوق مادّة استدراكياً للأخطاء الطّباعيّة الواردة في المحاضرات، وأُقفّيه بجدولٍ يبيّن المادّة المطلوب حفظها:

- مسرد الأخطاء الطّباعيّة :

المحاضرة	الصفحة	السطر	الخطاء	الصواب
التمهيدية	٣	١	أهدافة	أهدافه
=	٥	٢	الراشدى	الراشديّ
=	٦	١	معرفى	معرفيّ
=	٦	٣	ثقافى	ثقافيّ
=	٦	٣	إطلاعة	إطلاعه
=	٦	٥	إجرائى	جرائيّ
=	٦	٥	ولاستئناس	والاستئناس
=	٦	٧	مهارى	مهاريّ
=	٦	٩	تذوقى	تذوقيّ
=	٦	١١	لسانة	لسانه
=	٨	١	على	علي
التمهيدية	٨	٣	الجبورى	الجبوري
=	٨	٦	الجبورى	الجبوري
الأولى	٤	٩	للإفهانم	للإفهام
=	٥	٣	المعانى	المعاني
=	٥	٧	نبوة	بنوه
=	٥	٨	الطبيعى	لطبيعيّ
=	٦	١	ينتمى	ينتمي
=	٦	٢	قصى	صيّ
=	٦	٢	الذى	الذي
=	٦	٣	الذى	الذي
=	٧	٢	المخلوقة	المخلوق
الأولى	٧	١٢	اجتمعيا	اجتماعيا

=	٨	٨	صلاه	صلاة
=	٨	٨	ان	نّ
=	٨	١٠	اللغه	اللغة
=	٨	١٠	المعانى	المعاني
=	٨	١١	ان	نّ
=	٨	١٢	أوتى	أوتي
=	٩	١	أغترف	اغترف
=	٩	٥	أحاديثة	أحاديثه
=	١٠	٣	لأبى	لأبي
=	١٠	٥	فى	في
الأولى	١٠	٦	الصابئه	الصابئة
=	١١	١	الشعرى	الشعري
=	١٢	٣	أبى	أبي
=	١٢	٣	البوادى	البوادي
=	١٣	٢	أبى	أبي
=	١٣	٤	الجعدى	الجعدي
=	١٣	٤	زوجتة	زوجته
=	١٣	٦	عمى	عمي
=	١٣	٦	اخرجنى	أخرجني
=	١٣	٧	السعدى	السعدي
=	١٣	٧	وضعة	وضعه
الأولى	١٣	٧	بن	ابن
=	١٣	٧	يتركة	يتركه
=	١٣	٧	ابنة	ابنه
=	١٣	٨	ليلبى	ليلبي
=	١٤	٢	غصنى	غصني
=	١٤	٣	فإنى	فإني
=	١٤	٤	شف	شغف
=	١٤	٧	قيسى	قيس
=	١٤	٧	فى	في

=	١٤	٨	ان	نّ
=	١٤	٨	الجرشي	الحرشي
الأولى	١٤	٩	ذالك	ذلك
=	١٥	١	يدى	يدي
=	١٥	١	منى	مني
=	١٥	٣	شأنى	شأني
=	١٥	٣	أذ	ْ
=	١٥	٥	حاسيتة	حاسيته
=	١٥	٥	أشتف	شتفّ
=	١٦	٣	رضى	رضي
=	١٦	٤	أصحابة	أصحابه
الثانية	٥	٤	الذى	الذي
=	٥	٦	الجعدى	الجعدي
الخامسة	٤	٢	٥٦٢هجري	٥٦٢م
العاشرة	١٣	٣	الحاهلية	الجاهلية

النصوص التي يتوجّب على الطالب حفظها

ُ ُشير إلى النصوص التي يتوجّب على الطالب حفظها، أكنت شعراً أم نثراً، وأ ُجدولها على النحو التالي:

المحاضرة	الصفحة	النص
الثانية	٤	قوله تعالى: والشعراء....
=	٥	قول الرسول الكريم : إنما الشعر....
=	٦	بيت سحيم : عميرة ودع....
=	٧	بيتا النعمان بن عدي

الثالثة	٦	بيتا عبد الله بن رواحة
=	٩	أيّة ثلاثة أبيات من أبيات كعب بن مالك
الرابعة	٥	ثلاثة من أبيات عبدة بن الطبيب
الرابعة	٩	ثلاثة أبيات من مرثية متمم بن نويرة
=	١٠	آخر ثلاثة أبيات للشاعر لبيد بن أبي ربيعة
=	١٥	بيتان من شعر الحطيئة
الخامسة	٥	ثلاثة أبيات من قصيدة حسان
السابعة	٤	ثلاثة أبيات من قصيدة كعب بن مالك
الثامنة	٣	أول ثلاثة أبيات من قصيدة الشاعرة قتيلة
العاشرة	١٠	خطبة الرسول(عليه الصلاة والسلام)
الثالثة عشرة	١١	أول أربعة أسطر من رسالة عمر إلى الأشعري
الرابعة عشرة	٤	ثلاث حكم من حكم الرسول الكريم
=	٦	ثلاث حكم من حكم الخلفاء